سنوات الجحيم

أوراق مراسل
صحفي بالعراق

الفصل الثامن

الواقفون على
حافة المذبحة

obeikan.com

obeikan.com

• أيها الواقفون على حافّة المذبحه
أشهروا الأسلحة!
سقط الموتُ؛ وانْفَرَطَ القلبُ كالمسبحهْ
والدم انساب فوق الوشاح!
المنازل أضرحَة،
والزنازن أضْرحَهْ
فارفعوا الأسلحة
واتبعوني!
أنا ندم الغد والبارحة
رايتي: عظمتان... وجُمجُمَة
وشعاري: الصباح.

أمل دنقل

يقول مارتن لوثر كنج « لا يستطيع أحد ركوب ظهرك إلا إذا كنت منحنيا ».

عندما دخلت إلى المذبحة كان بعض ممن بداخلها قد خرج منها إلى غير بعيد وأصبح من الواقفين على حافتها ربما للمراوغة أو انتظار دور أو استكشاف ما يدور أو ربما لمجرد التواجد فى محيط لم يعد له دور فعال فيه ومن العار تركه تماما وحتى يكون هناك ما يقال إذا ما بلغت التهم المطلقة موقع الحساب شعبيا أو تاريخيا أو على أى مستوى فهؤلاء الواقفون على حافة المذبحة كان حرياً بهم أن يتواجدوا داخلها عمليا لمحاولة تفكيكها أو إنهائها لأنهم شاءوا أم أبوا جزء من أسبابها سواء بالجوار المكانى أو المسئولية التاريخية ،إلا أننا لا يمكن أن نغفل أدوار بعض الواقفين على حافة المذبحة التى تجرى فى حدود المتاح سواء لظروف الدول التى ينتمى إليها هؤلاء الواقفون وهى دول فرضت الجغرافيا والتاريخ أن يكون دورها محدوداً أو الظرف الموضوعى العراقى الذى لا يسمح بالكثير من الحركة إلا بناء على توافقات وتوزنات لأدوار القوى الدولية والإقليمية .

١ - الجامعة العربية

عندما دخلت إلى المذبحة كانت الجامعة العربية بمقرها الكائن فى منطقة بين منطقتين أى أنها عمليا داخل منطقة محمية تقع فى محيط المنطقة الخضراء خلف مبنى وزارة الخارجية تلك المنطقة التى تضم منازل عدد من الوزراء

والمسئولين ومقرات لمنظمة المؤتمر الإسلامى وعدد من المصالح الحكومية العراقية إلا أنها شكليا تقع خارج المنطقة الخضراء شديدة التحصين التى تضم ما تضم من مبان تحكم العراق عمليا وشكليا فهى تضم السفارتين الأمريكية والبريطانية بالإضافة إلى مقار مجلس الوزراء والنواب ووزارة الدفاع ومنازل الوزراء وكبار المسئولين وفندق الرشيد الذى يقطنه عدد كبير من أعضاء البرلمان والسفراء والشخصيات الهامة ممن لم يحصلوا على منازل فى المنطقة الخضراء .

كان فى ذلك الوقت السفير مختار لمانى هو رئيس بعثة الجامعة العربية يعاونه قائم بالأعمال لبنانى الجنسية هو طارق بلطجى يتحدث اللهجة المصرية حيث قضى ردحا من الزمن فى قاهرة المعز الذى كان دينامو البعثة بينما يكتفى السفير لمانى باللقاءات والحفلات البروتوكولية دون دور يذكر .. والحق يقال أن الرجل ربما حاول أن يلعب دورا رآه ضروريا لدعم التواجد العربى بالعراق خاصة بعد أن طرحت الجامعة العربية مبادرة المصالحة الوطنية التى ظلت شعارا يحول دون تحقيقه صراعات أقوى من الوطنية ومحاولات التقريب وان كانت فى ظاهرها صراعات ضيقة تغلب عليها الفئوية والجهوية والطائفية وكل تلك المصطلحات التى زادت نيران المذبحة اشتعالا لأنها كما يعلم الجميع مرتبطة بمصالح قوى إقليمية ودولية رسمت مصير العراق منذ أمد بعيد وخطت بداية مأساته عبر سلاسل من الفواجع والكوارث لم يكن أولها بالطبع دخول القوات الأمريكية إلى قلب عاصمة الرشيد فى إبريل من العام ٢٠٠٣ حاملة على مدافع دبابتها حكام العراق الجدد اللذين ربما أراد بعضهم فعلا تغيير البلاد وبدء عصر جديد إلا أن طريق الكوارث مفروش دائما بالنوايا الحسنة فصاروا جزءاً من المذبحة وليس وسيلة لإنهائها بينما ظل الشعب العراقى فى كافة العهود والتقلبات وقود المذبحة لا حول له ولاقوة

فى الحقيقة أننى لم التقى الرجل / السفير لمانى/ أبداً نظراً للظروف الاستثنائية التى كانت تحكم تحركات من يعيش فى كافة مناطق العراق وخاصة بغداد والتى وصفت جزءا منها فى بداية الكتاب .

إلا أننى لا أنسى أبدا ما ذكره زملاء لى كانوا أكثر حرية فى الحركة داخل بغداد لأنهم أبناءها وكما نعلم فإن « أهل بغداد أدرى بشعابها» كما أننى أمضيت فترة طويلة من الوقوف داخل المذبحة دون أن أتحرك حتى أصبحت جزءا من تضاريسها المحترقة واعتدت على التحرك داخلها مثل باقى العراقيين أو من يعيش بالعراق بعد أن تأكدت من حتمية الحياة بطريقة شبه طبيعية مهما كانت

المخاطر لأن الموت مزروع على الطرقات وفى ذرات التراب الذى يستنشقه العراقيون ومن قدر له أن يعيش معهم فى تلك الفترة التى شهدت أحداثا لم يمر بها أى بلد فى العالم .

ويحكى زملائى فى المهنة عن الرجل الذى كان يتعامل مع منصبه الهام على أنه مهمة الوقت الضائع حتى أن أحد اصدقائى عندما التقى به فى مقر الجامعة العربية ليجرى معه حوارا صحفيا التقى به وهو يرتدى / الترينتج سوت/ .

وقد أنهى السفير لمانى مهمة الوقت الضائع بخطابه القنبلة إلى الأمين العام للجامعة العربية الذى كان يشرح فيه أسباب استقالته من مهمته المستحيلة حيث أبلغ لماني الأمين العام للجامعة عمرو موسي أنه قرر الانسحاب من مهمته هذه لاستحالة إنجاز أي شيء جدي وإيجابي نهاية الشهر المقبل في غياب تام لأي رؤية عربية لمعالجة الوضع العراقي. وجاء هذا القرار في رسالة خطية بعث بها لماني إلى موسي الأسبوع الماضي .

وقال لماني في رسالة من ثماني صفحات مؤرخة في الثاني والعشرين من يناير أن الواقع علي الصعيد العراقي الداخلي معقد وعلي كافة الأصعدة الإقليمية والدولية .. مؤكدا أنا لأمر مؤلم استحالة إنجاز أي شيء جدي وايجابي لهذا فانه من الأمانة الانسحاب وإنهاء المهمة اعتبارا من فبراير ٢٠٠٧

نص رسالة استقالة مختار لماني

مبعوث الجامعة العربية الدائم في العراق ٢٠ -١ -٢٠٠٧

معالي السيد الأمين العام

تحية طيبة وبعد...

أولاً: علمنا التاريخ أن أرض العراق هي مهد الحضارات وأن ساكني هذه الأرض عبر تاريخهم الذي يقاس بطول التاريخ نفسه عرفوا بفسيفسائهم الجميلة والغنية أن يجعلوا من العراق منارة علم وأرض عطاء وتأثير حضاري وديني وفكري وثقافي.

علمنا التاريخ أن أهل العراق عرفوا عبر تاريخهم الطويل محناً ومآس قد تكون أسوأ من محنتهم الحالية لكنهم استطاعوا دوماً أن يتغلبوا على هذه المحن...

إلا أن محنتهم الحالية تتميز بخطورة خاصة تتلخص في محاولة تدمير تماسك الفسيفساء الجميلة فيها عوامل متعددة داخلية وإقليمية ودولية ولكل عامل من هذه العوامل تعقيداته ويزداد تعقيدها بتفاعلها مع بعضها البعض.

١- داخلية: لا يتفق حالياً أهل العراق على تشخيص موحد لمشاكلهم وبالتالي

على الالتزامات الواجب الوفاء بها لتحقيق النقلة النوعية في علاقاتهم.

سمة هذه العلاقات تكمن حالياً في انعدام الثقة تماماً وهروب أهل العراق إلى الأمام في ردود فعل وتخندق أصبح عنفه عبثياً وبدائياً ومتناقضاً مع رواسب ثقافتهم العريقة.

أهل العراق في وضع حالي يهدف إلى تدمير تماسكهم الاجتماعي في عمقه نافياً جذوره الضاربة في أعماق التاريخ.

طوائف أهل العراق كما هو حال كل الطوائف الإنسانية دينية كانت أم إثنية تعرف غلاة في الأطراف لكن غلاة أطياف أهل العراق انتقلوا من الأطراف إلى المركز راهنين طوائفهم في فعل ورد فعل وتعميم أعمى يغير المعالم ويهجر الناس ويقتل على الهوية.

نتيجة هذا الوضع أصبحت علاقات أهل العراق تتسم بنفيهم لعراقيتهم، وهم مقتنعون أنه لا يمكن لأي طرف التفرد بأمور بلدهم. مشكلتهم ليست في الانفراد بل في كيفية ومدى إشراك الآخر.

أهل العراق في حالة شديدة من الاحتقان والانفعال ولم يقتنعوا بعد أن التحصين الصحيح والوحيد لبلدهم يمكن في توافقهم لإنقاذ بلدهم، توافق يرتكز على إيجاد منتصر واحد ووحيد وهو العراق نفسه.

٢- خارجياً: للعراق جوار معقد لا يقل تعقيداً عن داخله بأبعاده التاريخية والروحية والعرقية وكذلك انتماء العراق لمنطقة ذات أولوية للاقتصاد العالمي، وبالتالي فاتهامات ومصالح الجوار والقوى الكبرى تتقاطع وتتضارب في حقول متعددة ومتداخلة كما أن الأبعاد الدولية لعلاقات الجوار تنعكس بشكل مباشر ومؤثر على الساحة العراقية بل أن ما يزيد الوضع العراقي تعقيداً أن عدداً ليس بالهين من هذه القضايا أصبح ميدانها هو العراق والاتجاه الذي أراه من الداخل هو المزيد من استعمال العراق كميدان لعدد من المعارك ولأطراف متعددة تضم دولاً ومنظمات وحضارات.

واعتقد أن أهل العراق بمختلف أطيافهم يرتكبون خطأ قاتلاً إذا واصلوا محاولاتهم تحصين بلدهم من خلال تحالفات خارجية ويبقى الحل الوحيد والضمان لربط ماضي العراق العريق بمستقبله هو تحصينه باتفاق أهله في مشروع وطني يضمن للجميع كافة الحقوق المتساوية في المواطنة وإنجاح ذلك من خلال دولة مؤسسات، بل إن من شأن ذلك عودة للدور التاريخي الرائد والمؤثر للعراق كنموذج يقتدى به. ويجب على أهل العراق أن يتذكروا أن ما وحدهم في

الماضي كان عاملاً أساسياً سمح لأجدادهم بلعب دور تاريخي ساهم في بناء الحضارة الإنسانية.

ثانياً: قدمت للعراق منذ حوالي سنة نتيجة قرار عربي للمساهمة والسعي لتحقيق الوفاق العراقي وجعله حقيقة ثابتة وبمتابعة للتطورات من الداخل وانعكاساتها الخارجية توطدت قناعتي أن في نجاح العراق ومناعته مصلحة لأهله وجواره بل للعالم وفي انهياره وسقوطه كارثة على الجميع لما لذلك من تداعيات وتعقيدات دينية وطائفية وإثنية وقومية.

الشعب العراقي الذي وجدته في العراق خلال هذه المهمة، مهدد في عمقه وجائع وغير آمن.

النظرات التي شهدتها في عيون أطفاله تفيض بتساؤلات عميقة غير قادرة على فهم ما يقع ولماذا يقع بإختصار شديد ما كنت شهدت عليه طيلة هذه السنة الحزينة وفي ظروف أقل مما يقال عنها أنها عبثية ولا تتناغم مع أية مقاييس عرفتها خلال ٢٧عاماً كموظف دولي أتيحت له الفرصة في معايشة مناطق أزمات أخرى في العالم.

قد تكون أطياف الشعب العراقي وطوائفه شديدة القناعة بما عانته عبر تاريخها الطويل وتفاوتت هذه المعاناة في هذه المرحلة أو تلك لكن لمست خلال هذه السنة أن هذه المعاناة لم تنل من عزة نفسه وشهامته وكرامته. وإذا استطاع هذا الشعب أن يقف من جديد وحصن أهله بلدهم بتوافقهم الداخلي فلن يحتاج العراق لمساعدة أحد لما وهبه الله من خيرات ليست فقط مادية (نفط وماء) بل حضارية وروحيه وما أخشاه هو أن لا ينسى كيف تعامل مع الآخرين وهو يعاني من محنة فريدة وشديدة تهز بنيانه وتضرب عمق مجتمعه وتدمر فسيفسائه.

ثالثاً: حاولت خلال هذه السنة جاهداً التواصل مع كل الأطراف العراقية من خلال تنمية علاقات صادقة وصارمة وغير مجامله اتسمت بالجدية والمصارحة وأستطيع القول والتأكيد أنه ليست لدي مشكلة مع أي طرف عراقي بل كانت مشكلتي الوحيدة تكمن في علاقتهم ببعضهم البعض وشعورهم القوي بأن كل طرف منهم ضحية الطرف الآخر. وربما هذا هو العامل الوحيد المشترك بين أهل العراق في هذه المرحلة العصيبة.

رابعاً: اتخذ العرب في قمتهم الأخيرة في الخرطوم يوم ٢٩مارس ٢٠٠٦ قراراً نصت إحد فقراته (الفقرة الثامنة) على التنفيذ الفوري لقرار فتح بعثة لجامعة الدول العربية في بغداد وذلك تفعيلاً للدول العربي في العراق.... وفتحت البعثة

بدون أي إمكانيات مادية أو أمنية، لا داعي للدخول في سرد تفاصيلها والصعاب والمخاطر التي رافقتها وفتحت البعثة خارج المنطقة الخضراء المحصنة لضمان وتسهيل تواصلها مع كافة العراقيين وصممت هذه البعثة خلال هذه السنة لأن عراقيين كثيرين هم من ساعدوها بمؤازرتهم ودعمهم نتيجة علاقات بنيت على الثقة وبهدف واحد هو مساعدة العراق للوقوف من جديد كمنارة إشعاع حضاري. وهؤلاء العراقيون منهم الكردي والعربي والتركماني ومنهم المسيحي والمسلم الشيعي والسني والصابئي والزيدي والشبكي والقائمة قد تطول.

ولا أخفي أنه لم تكن لدي أوهام حين اتخذ العرب قرارهم وكما عهدوا في أدبياتهم الدبلوماسية سهولة الإقرار وعدم التنفيذ لكن ما دفعني لقبول المهمة هو التحدي والرغبة الشديدة في مساعدة أهل العراق مهما كانت ضآلة هذه المساهمة. أقول : قبلت المهمة ولم أتعامل معها في أي لحظة كدبلوماسي بل تعاملت من قلبي وببساطة باعتبار أن أهل العراق أهلي وحرصت أن تكون العلاقة متوازنة وبنفس المسافة مع كل الأطياف والأطراف مركزاً على كل من شأنه التقريب بينهم من خلال توافقهم السياسي وتلاحمهم الوطني.

قدمت إلى بغداد خلال فترة اعتبرت فيها الأمم المتحدة بل العالم بغداد كأخطر منطقة في العالم وحرصت في الشهور الأولى وفي تواصلي أن أكون مستمعاً لرجال السياسة والدين والفكر والعشائر والمجتمع المدني.

قدمت بدون قيام الدول التي أوفدتني إلى بغداد بتقديم أي مساعدة أمنية أو مادية وهي نفس الدول التي توجه دبلوماسييها المعتمدين لدى العراق بالإقامة في عمان ولا تسمح لهم بالسفر إلى بغداد بالرغم من إمكانياتها المادية والأمنية لحمايتها ولم يكن بإمكان البعثة التي فتحتها (وكلمة بعثة هنا مجازية مجازفة لأنها في حقيقة الأمر شخصان فقط) أن تصمد طيلة هذه السنة في ظروف يصعب أن لم يستحيل وصفها لولا عاملي الإيمان والتحدي.

خامساً: في غياب تام لأي رؤيا عربية متماسكة وجادة في معالجة الموضوع بل انعدام حتى الوعي بضرورة تواجد هذه الرؤيا بأبعادها السياسية والأمنية وإعادة البناء والاكتفاء لدى البعض أحياناً بالانجرار إلى مواقف ترقيعية ومن منطلقات ضيقة لا تضع بالأساس ولا بالضرورة المصلحة العليا للشعب العراقي وإنهاء محنته بمساعدة أهله بتحصين بلدهم بتلاحمه الوطني وضمان ربط مستقبلهم بماضيه المجيد والعريق ولقناعتي أن الثقة والمصداقية وحدهما لم ولن يمكنا من مساعدات أهل العراق بل ولدا في أعماقي شعور قوي بالإحباط والقهر أمام المعاناة التي كنت

شاهداً عليها طيلة هذه السنة وكذلك أحاسيس متناقضة بين ما يمكن للمرء ما يتمناه للعراق وما يراه فعلياً على أرض الواقع.

والشعب العراقي وأقصد المواطن العراقي أصبح في موقع لا يحتاج فيه إلى المؤتمرات تصدر بيانات مهذبة وجميلة، سياسية كانت أم دينية، هي في نهاية المطاف عبارة عن مبادئ أخلاقية عامة و متسامحة لا يختلف عليها اثنان لكنها وللأسف بدون أي أثر يذكر على الواقع اليومي الأمني والمعيشي لهذا المواطن والذي يزداد سوءاً ورعباً.

أما الأمور اللوجستية المتعلقة بهذه المهمة والمساومات التي طالتها فقد أصبحت لا تستحق التعليق بل ولا حتى الإشارة إليها.

سادساً: أمام هذا الواقع المرير والمؤلم وأمام استحالة إنجاز أي شيء جديد وإيجابي، على الأقل بالنسبة إلى، فأجد نفسي مضطراً ومتألماً وحزيناً لإبلاغ معاليكم بأنني قررت الإنسحاب من هذه المهمة بحلول نهاية شهر فبراير ٢٠٠٧، في انتظار قيام معاليكم بتعيين بديل قد يستطيع إنجاز ما لم أتمكن من إنجازه.

وفي النهاية أود أن أعبر عن شكري لتفهمكم وشكري موجه كذلك لكافة الزملاء في الأمانة العامة لدعمهم وصداقتهم.

كما أود أن أشيد إشادة خاصة برفيقي في هذه المغامرة الزميل طارق عبد السلام، الوحيد من الأمانة العامة الذي قبل أن يرافقني في هذه المهمة وواصلها بثبات وأمان بالرغم من ظروفها الأمنية والتهديدات التي رافقتها مهددة عدة مرات حياتنا وفارضين على عائلتينا سنة من الخوف من المجهول وضغط رهيب، أنا متأكد، لن يتمكنوا من نسيانه فترة طويلة.

الإشادة كذلك تطول العاملين المحليين في البعثة لدعمهم للمشروع بالرغم من التهديدات والخطورة البالغة على حياتهم كل يوم وهم قادمون للبعثة وكل مساء وهم منصرفون.

وتفضلوا معالي الأمين العام بقبول أسمى عبارات التقدير والاحترام.

مختار لماني

رئيس البعثة الدائمة

لجامعة الدول العربية في بغداد

إذا كانت هذه الرسالة القنبلة التى عرت واقع التواجد العربى بالعراق خاصة الجامعة العربية التى بقيت متواجدة بعد اختفاء الدور المصرى بشكل شبه كامل على خلفية اختطاف المرحوم السفير ايهاب الشريف فى عام ٢٠٠٥ وفشل مصر

حتى فى استعادة جثمانه إلا أن تصريحات لمانى أوضحت بمرارة حال التشظى وعدم وضوح الرؤية التى شابت رئيس البعثة الذى تسلم مهام منصبه بعد استقالة لمانى بأكثر من عام وهو السفير هانى خلاف الذى كان يعتبر أحد الخبراء فى الشئون العربية والشأن العراقى تحديدا حيث ذكر لماني في حديث خاص مع جريدة «الشرق الأوسط» نشر فى ٨ مارس عام ٢٠٠٧ أنه اجتمع مع عمرو موسى في القاهرة قبل انعقاد الاجتماع الوزاري للجنة العراق ، التي تضم وزراء خارجية دول الجوار إضافة إلى العراق والجزائر ، والسودان والبحرين ، ودولة الإمارات الذي عقد في شهر ديسمبر (كانون الأول) الماضي. وقال لماني : «اقترحت على عمرو موسى عقد قمة عربية استثنائية مخصصة فقط للعراق وأن لا يكون في أجندتها سوى موضوع واحد هو الوضع في العراق». وأضاف لماني، الذي قضى سنة كاملة في العراق، أن «الغرض من هذه القمة مناقشة مشروع سياسي محدد يمهد الطريق لمشاركة جميع الأطراف والأطياف العراقية وكيف يمكن حل المأزق الأمني إضافة إلى تحديد دور خاص للعرب في برامج إعادة إعمار العراق» مشيرا إلى انه اقترح أيضا تشكيل لجنة رباعية تتكون من السعودية والإمارات ومصر والجزائر لديها تفويض كامل مع التأكيد على أن لا يكون العراق ميدان صراع أمريكي — إيراني. ويروي مبعوث الجامعة العربية السابق تفاصيل اللقاء مع عمرو موسى حيث أكد له وفق مشاهداته ولقاءاته مع كل القوى السياسية والدينية، ومن بينها منظمات المجتمع المدني، أن «مؤتمر المصالحة الوطنية لا يمكن أن يحقق أي شيء وهو أمر مضحك نتيجة الدور الإيراني والأمريكي في العراق». ويتذكر لماني أن الأمين العام طلب منه إلقاء كلمة خلال الاجتماع الوزاري أمام لجنة العراق، ويقول : إنه «فوجئ في يوم انعقاد الاجتماع باستبعاده من اجتماع لجنة العراق الوزارية، وطلب مني أن أقدم ورقة مكتوبة، وهذا ما دفعني إلى مقاطعة الاجتماع وقررت الاستقالة». وفي غضون تلك الفترة أوضح لماني انه وجهت له دعوة من قبل دولة الإمارات يوم ١٥ يناير (كانون الثاني) الماضي لزيارة الإمارات للقاء المسؤولين هناك، ويقول : «هذا ما دفعني لتأجيل الاستقالة على أمل أن تأخذ دولة الإمارات المبادرة، ولكن كما تبين فإن الإمارات لا تريد أن تأخذ زمام المبادرة وأنها تريد فقط الإطلاع على طبيعة ما يجري في العراق». وأضاف: «بعد زيارة الإمارات قدمت استقالتي مع رسالة مرفقة بثماني صفحات إلى الأمين العام عمرو موسى وطلب مني المجيء إلى القاهرة تحت إلحاح أحمد بن حلي الأمين العام المساعد للجامعة العربية، وعرض علي زيادة الراتب وبعض الإغراءات من أجل البقاء في بغداد، لكني رفضت بسبب عدم وجود رؤيا أو منهج واضح للتعامل مع الأزمة العراقية». ويؤكد

لماني أن حكومة نوري المالكي هي جزء من الأطراف العراقية، وقال : «إنها لا تحكم حتى المنطقة الخضراء، وأن أي مصالحة وطنية لا تتحقق إلا بمشاركة كل الأطراف والأطياف العراقية بما فيها المقاومة باستثناء تنظيم القاعدة». ولم يخف لماني مرارته من تجاهل الجامعة العربية للأخطار التي تعرض لها، ويتذكر أنه مرة تعرض للتهديد، ما دفع الرئيس العراقي جلال طالباني إلى إيوائه في بيته لفترة حتى تم نقله إلى منزل في منطقة القادسية ببغداد، ويقول «كما بدا لي أن فتح بعثة للجامعة العربية كان هو الهدف الأساسي بدون القيام بعمل باتجاه التعامل مع الأزمة العراقية بشكل جدي».

وفي هذا السياق شكك مختار لماني في نجاح المؤتمر الإقليمي الذي عقد في بغداد بمشاركة سوريا وإيران، وقال : «إن دول الجوار عقدت أكثر من اجتماع ولم يصدر منها سوى بيانات جميلة وبراقة ولم تحقق أي شيء ملموس على الأرض». وأعرب عن قناعته بأنه لا يمكن حل المأزق الأمني في العراق عسكريا، وقال: «إن الحل سياسي بالدرجة الأولى نظرا لتباعد وجهات نظر الأطراف المشاركة في العملية السياسية ووجهات نظر الأطراف غير المشاركة في العملية، ويضيف : «عندما كنت التقي بثلاثة وزراء في المنطقة الخضراء كنت أشعر وكأني التقي بثلاثة وزراء من ثلاث حكومات مختلفة». وأكد لماني أن خروج القوات الأميركية في الوقت الحالي سوف لن يساهم في حل الأزمة العراقية نتيجة تراكم الأزمات والمشاكل وعلى رأسها مشكلة التهجير القسري، ويقول : «لقد تم تهجير حوالي ٥ ملايين شخص وهذه أكبر هجرة تحدث في العالم العربي بعد نكبة فلسطين».

• هاني خلاف

بعد ساعات من زيارة مفاجئة لوزير الخارجية المصري أحمد أبو الغيط إلى العراق، وإعلانه من هناك قرب إعادة افتتاح السفارة المصرية في بغداد، تسلم السفير هاني خلاف، الممثل الجديد للأمين العام لجامعة الدول العربية مهام منصبه كرئيس لوفد الجامعة العربية بالعراق وذلك يوم الإثنين الموافق ٦ أكتوبر عام ٢٠٠٨.

كان خلاف على الرغم من تجاوزه سن الستين إلا أن الزمن لم ينل من نشاطه وحيويته وبدأ عمله قبل أن يتسلم المنصب حيث زار بغداد عقب تعيينه وأجرى محادثات مع عدد من كبار المسؤولين العراقيين، حيث كان يشغل سابقاً منصب مندوب مصر الدائم لدى الجامعة العربية ولديه الكثير من الخبرة بالملف العراقي وهو ما اعتبره المراقبون حينها تدشينا لعودة عربية مكثفة للعراق، قد تنتشله من

جحيم الصراعات الطائفية، ومن تنفذ القوى الإقليمية ، التى تمثل احتلالاً موازياً للاحتلال الأمريكى على الأرض العراقية.

وفى حوار أجرته معه صحيفة اليوم السابع فور وصوله إلى بغداد عبر الهاتف عن أبرز المشروعات التى يعتزم العمل على تنفيذها لدعم الدور العربي بالعراق ؟

قال خلاف : «هي عبارة عن أفكار للتفاعل والتواصل، وتبنى أساساً على قرارات القمم العربية، فهناك التزامات، تم إقرارها فى تلك القمم، على العراق أن يلتزم بها وأيضا على باقى الدول العربية أن تلتزم بها تجاه العراق، ومن بينها تفعيل إجراءات بناء الثقة بين العراق والدول العربية، بعض هذه الأفكار قد يكون له برامج تنفيذية وبعضها قد يكون للدفع وتقديم الأفكار الجديدة.

ويبدو أن السفير النشيط لم يكن يعلم ما يدور فى الشارع أو فى الكواليس والذى يترجم عمليا ليرسم المشهد العراقى ..لم يكن « خلاف » يعلم حقيقة الأوضاع التى تختلف كثيرا عما يدور فى اللقاءات البروتوكولية داخل الحصون التى تحكم العراق حيث أجاب على سؤال فى نفس الحوار عما إذا كانت الجامعة العربية سوف تلعب دوراً موازيا للدور الإيراني؟

بالقول:إن الجامعة العربية تضم ٢٢ دولة وأعتقد أنها قادرة على أن تقدم مساهمات للجانب العراقى شعباً وحكومة وتستطيع أن توازى وتقلص الدور الإيراني الذى بات يقلق الجميع ولكن دعنا نتوصل أولاً لخطوات عملية لدعم المصالحة الوطنية ونحن متمسكون فى الجامعة العربية بتطوير العلاقات والتعامل مع جميع القوة السياسية العراقية ولن نستثنى أحداً، فلابد أن يكون هناك عراق موحد ومتصالح مع نفسه ونحن نسعى لتحقيق هذا والجامعة العربية هى الطرف الأساسى الذى يصر على تحقيق تلك المصالحة لإخراج العراق مما هو عليه.

تتوالى إجابات السفير النشيط على أسئلة اليوم السابع التى شجعتنى كثيرا على زيارة الرجل حيث جاء الحوار كالتالى :

سبق أن حاولت الجامعة فى موضوع المصالحة فى عام ٢٠٠٥ فهل هناك رؤى وأفكار جديدة تحملها؟

نعم هناك أفكار جديدة فى المستقبل القريب وتحتاج إلى وقت ولكن مع الوقت ودراسة الظروف التى دفعت بالكثير من القوى السياسية والاجتماعية فى العراق لتطوير مواقفها، وبالتالى نستطيع أن نقدم تصوراً شبه متكامل للوصول لميثاق وطنى جديد يجتمع عليه كل الأطراف، لكن المهم التقاء كل القوى السياسية فى منطقة وسط، تحقق للجميع مصلحة مشتركة وهى مصلحة العراق الواحد.

هل لديك رؤية لشكل جديد من العلاقات بين العراق وجيرانه؟

جاءت مبادرة الأمين العام لتعيين بعثة للجامعة العربية فى أواخر يوليو الماضى أعقبها إعلان ٥ دول عربية أنها فى سبيلها لفتح سفاراتها بالعراق، بدأتها مصر مما يدل على أن النشاط الدبلوماسى ليس شكلياً ولكنه مصحوب بأنشطة عملية واقتصادية، ونأمل أن يصل قريباً السفراء العرب للدول العربية التى أعلنت استعدادها لفتح سفاراتها ببغداد، ويكون الحضور العربى موازياً للحضور الأجنبى.

من ناحية ثانية، على كافة الدول العربية أن تعى أن العراق له ثقل اقتصادى كبير وبالتالى فإن تحقيق المصلحة المشتركة للدول العربية والعراق يجب أن يرافقه نظرة اقتصادية كبيرة لهذا البلد.

متى تتوقع أن تعود مصر لفتح باب سفارتها فى بغداد؟

هى مسألة شهور أو أسابيع ، فقد أشار الوزير أحمد أبو الغيط فى تصريحه عقب لقائه وزير الخارجية العراقى، أن فتح السفارة المصرية ببغداد «سيتم فى القريب، أو على مراحل» كما أن العلاقة بين القاهرة وبغداد لا تنحصر فى فتح السفارات، ولكن تمتد إلى مشروعات ومصالح متبادلة، وماذا ستقدم مصر للشعب العراقى وما ستقدمه الشركات فى مجال التشييد والبناء والكهرباء والنفط، فالعراق بحاجة إلى القدرات المصرية فى مرحلة إعادة البناء، مع النقص الشديد الذى يعانى منه العراق فى الكهرباء ووقود السيارات، وهذا ما يمكن أن توفره مصر للعراق، كما ذكر وزير الخارجية المصرى.

كان كلام الرجل مشجعا جدا وإن بدا وصفا لمشاهد من خلال شباك الطائرة ولا يدل على حقيقة الوضع بالعراق أو ربما كان الرجل يعلم لكن لا يريد أن يتحدث إلى الإعلام أو ربما جعله الوضع الأمني الذى بدا مستقرا بعض الشيء نهاية العام ٢٠٠٨ منتشيا وأكثر تفاؤلا من سلفه الذى أمضى فترة عصيبة بالعراق احترق فيها الأخضر واليابس خلال عامى ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ .

لا يمكن لى أن أصف درجة سعادتى كصحفى مصرى وحيد يعيش داخل المذبحة عندما اتصل بى السفير هانى خلاف يوم العاشر من أكتوبر أى بعد وصوله إلى بغداد بأربعة أيام ودار بيننا حديث ودى جميل غلفته مشاعر الأبوة القلقة على شاب مثلى يعيش وسط هذا الجو الاستثنائى وكيف تمكنت من الصمود طوال هذه الفترة وكيف مضى عام ونصف تقريبا وأنا داخل المذبحة .. دعانى الرجل لزيارته وتبادل أطراف الحديث وأبدى رغبة شديدة فى أن أضعه فى الصورة الحقيقية للأوضاع بالعراق خارج الجدران التى تحجب الكثير من الرؤية.

وعندما وصلت إلى مقر بعثة جامعة الدول العربية فى بغداد استقبلنى الرجل استقبالا حافلا كأنه يعرفنى منذ زمن طويل واختطلت عندى مشاعر الفرح بلقاء مسئول مصرى وعربى بمشاعر القلق على الرجل الذى أطلت من عينيه إرادة حقيقية للعمل الجاد دبلوماسيا وإنسانيا وهو أمر يشوبه الكثير من المخاطر فى بيئة مازالت تعتبر الوجود العربى غير مرغوب فيه رغم كل التصريحات والأمنيات المعلنة .. تذكرت تصريحات الرجل لصحيفة روز اليوسف التى اعتبر فيها أن الولايات المتحدة وأطرافا عراقية وإقليمية، فى إشارة واضحة إلى إيران، لا ترغب فى وجود دور قوى للجامعة العربية فى العراق،رغم مبادرة بعض الدول العربية في تعيين سفراء فى بغداد وفتح قنوات اتصال مع الحكومة العراقية. وأوضح فيها أن واشنطن لا تزال تتردد فى الاعتراف بدور واسع للجامعة العربية فى العراق، موضحا أنه يعتزم العمل على تحقيق مقاربة عربية - إيرانية تبدأ بحوار مع طهران حول القضايا ذات الاهتمام المشترك .

ومن هنا بدأ حوارنا بعد أن سألنى عن حقيقة الأوضاع خارج الجدران والأسوار المغلقة أمنيا وإنسانيا وسياسيا .. ولم أبخل على الرجل الذى أبدى لى رغبة حقيقية فى أن أعمل معه من خلال الأفكار والمقترحات لدعم دور البعثة العربية على الأرض والاقتراب من الناس بشكل عملى وقال لى وقتها « أنعت اكتشاف » وما قاله رئيسك عبد الله حسن عن إمكانياتك لم يكن مبالغة منه .

سعدت كثيرا بهذا الإطراء إلا أن السؤال الذى أطلقته حول تصريحاته بشأن العمل على تحقيق مقاربة ايرانية – عربية رغم كل ما ذكرته وما يعلمه هو عن حقيقة الدور الإيرانى بالعراق جعل دفة الحوار تدور بيننا فى محاولة من جانب كل منا إقناع الآخر برأيه فقد كان السفير خلاف يتبع مدرسة الدكتور مصطفى الفقى الذى يرى بضرورة التقارب مع إيران وليس الوقوف ضدها بينما أرى من خلال معايشتى للأوضاع بالعراق وما تفعله إيران على الساحة العربية بشكل عام أنه يجب الوقوف فى وجه الأطماع الإيرانية أولا بشكل فاعل ثم وضع الية للتعامل معها بعد تحقيق التوازن فى علاقاتها مع العرب ومع مصر تحديدا .

وبعد حوار مطول استمر أكثر من ساعة استمر كل منا على موقفه بخصوص إيران ودورها بالعراق ومع اختلافنا فى هذا الأمر إلا أننا اتفقنا على ضرورة العمل بشكل مؤثر لدعم التواجد العربى بشكل عام فى العراق وقطع الطريق على المزيد من الدور الإيرانى الذى خرب البلاد والعباد حيث تقدمت ببعض المقترحات التى تخص الجانب الإنسانى أولا لأننى أكثر احتكاكا بالناس نظرا لطبيعة عملى ورغبتى فى

التواجد خارج الجدران بما فيها جدران الفنادق الكبرى التى غالبا ما تكون مقرا لوسائل الإعلام خاصة غير العراقية وتعهد السفير خلاف بالتركيز في مهمته الجديدة في العراق على الدور الإنساني والاجتماعي للجامعة ليضاف لجهودها في موضوع المصالحة الوطنية وكان ذلك تأكيدا لتصريحات سابقة له أعجبتنى كثيرا وابلغته رؤيتى الخاصة بأن تكون تلك البداية الناجحة وهو أن يعطي أولوية لأوضاع المهجرين والنازحين الذين تأثروا بالقصف والقتال، وأوضاع الأرامل والمعاقين، والمهجرين قسريا وتحديد أماكن نزوحهم، مع وضع برامج فرعية صغيرة لهذه القضايا.

دار الحديث بيننا حول أمر خلافى آخر ورد فى تصريحات صحفية للسفير خلاف وهو أنه سيتابع مع الجانب العراقي قضايا مهمة مثل المعتقلين السياسيين، والسجون بلا محاكمات، وأوضاع عدد من ضباط الجيش العراقي الذين لم يكن لهم دور في سياسات النظام السابق بحيث يكون لهم الحق في الحياة ودخل منتظم يكفيهم، ومسألة فرص العمل المتاحة للجميع هل فيها تمييز على أساس محاصصي أو أساس طائفي حيث كان يرى أن كل هذه الأمور يمكن متابعتها تفصيليا مع الوزارات والهيئات المعنية في الجانب العراقي إلا أننى أوضحت له وجهة نظر مخالفة وهي أن تلك الأمور ربما ستكون غير مرغوب فيها من الجانب العراقى ولا يجب التركيز عليها كثيرا لأن هناك حساسية كبيرة لدى العراقيين خاصة المسئولين وإن كانوا لا يظهروها وهى أنهم يعتبرون الجامعة العربية فناء خلفيا لوزارة الخارجية المصرية خاصة بعد تعيين رئيس للبعثة كان مندوبا لمصر بالجامعة العربية وقبلها مساعدا لوزير الخارجية المصرى للشئون العربية .

واستكمالا لشعور النشوة بالمنصب الجديد أكد لى السفير خلاف أن هناك أبعاداً جديدة لدور الجامعة العربية في العراق .. مشيرا فى هذا الصدد إلى استكمال أدوار الجامعة العربية السابقة مثل مسألة المصالحة الوطنية لأن أية منهجية عمل للجامعة العربية في العراق كانت قديما تتحدث عن دفع عملية المصالحة الوطنية والتصدي لفكر التشرذم والقتل، ولهذا يجب أن يكتمل هذا الدور بدراسة ما تم من الإجراءات السابقة وما لم يتمّ وأن يتم تنبيه الجهات التي كان مفترضا أن تقوم بشيء في إطار عملية المصالحة الوطنية ولم تقم به.

أنهيت لقائى مع السفير خلاف الذى أصر على اصطحابى إلى آخر بوابة لبعثة الجامعة باعتبارها فرصة للمشى خارج الجدران ولو لأمتار قليلة وهو يؤكد لى أن التعاون بيننا سيكون له كبير الأثر على مهمته بالعراق وأنه فى انتظار مقترحات

مكتوبة حول ما يمكن عمله على الأرض .

غادرت المنطقة شبه المحمية وخرجت إلى الشارع الرئيسى سيرا على الأقدام تتقاذفنى الأفكار المنتشية بسعادة اكتشاف هانى خلاف لى وسعادتى باكتشاف مسئول يريد أن يؤدى دورا طالما تمنيته وحلمت به حتى قبل بدء مهمتى بالعراق منتصف العام ٢٠٠٦ .. تصارعها أفكار أخرى يغلفها الرعب الذى تطرحه أسئلة مشروعة «ماذا لو علم من لا يريدون دورا عربيا بالعراق ما أفعله ؟ وماذا لو تتبعنى مراقب من حيث أتيت وإلى أين سأذهب وفيما أفكر حتى أسهم فى اتساع الدور العربى بالعراق ؟ » .. ويبدو أن شعور النشوة تغلب على شعور الرعب خاصة وأننى اعتدت تماما على أجواء الخطر حتى إننى أكملت سيرى على الأقدام لأعبر الجسر الجمهورى وصولا إلى شارع أبو نواس الذى كان يستعد لعودة الحياة بعد أن هدأت الأوضاع قليلا حتى وصلت إلى مقهى البغدادى الشهير الذي أعيد افتتاحه، حيث كانت جلستى المفضلة على ضفاف دجلة باتت طقسا شبه يومى رغم كل ما يحيط بها من مخاطر.

ومع شعور النشوة بدخان النرجيلة الذى اختلط بنشوة لقاء السفير المتحمس للعمل العربى بدأت الأفكار تتسرب واحدة تلو الأخرى لأكتبها على قصاصة ورق صغيرة تمهيدا لتدوينها بشكل منظم وتقديمها للسفير خلاف وتناسيت تماما مشاعر الخوف وهواجس ما قد يصيبنى من شذرات نيران أعداء التواجد العربى بالعراق .

فى اليوم الثانى بادرت بالاتصال بسعادة السفير المتحمس وطلبت اللقاء وظهرت من نبرات صوته ارتفاع نبرة الحماس لديه وطلب منى أن أشاركه غداء اليوم التالى بعد أن ننهى مناقشات العمل وكأول مرة استقبلنى الرجل بحفاوة بالغة واستمر الحوار بيننا حوالى ٣ ساعات متواصلة لم يقطعها غير رفعت الحارس الكردى الذى يأتى كل مرة ليقدم القهوة وتلخص اللقاء فى أمرين هامين أن تقوم بعثة الجامعة العربية بدعم مشروعين نموذجيين فى مجالى المرأة والشباب حتى يكونا تدشينا لنشاط إنسانى يمكن للسيد الأمين العام زيارتهما عند مجيئه إلى العراق وكاثبات لتواجد العرب بشكل حقيقى وان كان رمزيا .. أما الامر الثانى وهو عمل خطة عمل إعلامية لسعادة السفير من خلال لقاءات صحفية وتليفزيونية وإذاعية بالإضافة إلى كتابة مقال شبه ثابت فى صحيفة أو اثنين من الصحف المرموقة مثل الصباح شبه الرسمية والمدى التى تنشرها مؤسسة يملكها فخرى كريم كبير مستشارى الرئيس طالبانى وهى جريدة رصينة تحظى

بحضور مؤثر واهتمام كبير لدى المثقفين العراقيين وبعض الدول العربية .

طلب سعادة السفير المتحمس أن نبدأ بالأمر الثانى لأسباب عديدة ليس أهمها ولعه الشديد بالإعلام والنجومية التى يتيحها له منصبه الهام ولياقته الشخصية وحسن اختياره لعباراته المنمقة وحسن استقباله وتواصله مع الإعلاميين وإنما أيضا لأن الأمر الأول وهو العمل الحقيقى والمهمة الرئيسية لم يكن وحده طرف معادلتها وإنما سلسلة طويلة من المراجع دبلوماسيا وماليا وربما على نطاقات أخرى وهى مراجع بالتأكيد لم تكن تحمل درجة حماسه العاطفى للعمل فى بلد مثل العراق بكل ما يموج به من تناقضات وصراعات وتوجهات .

اعتذرت عن الاستمرار لتناول الغداء بعد أن قاربت عقارب الساعة الرابعة عصرا وهو توقيت لا يحبذ كثيرا البقاء بعده فى مناطق بعينها حتى لا يحدث مكروه رغم توجه الأمور إلى الاستقرار النسبى أمنيا .. إلا أن عمليات الاختطاف لم تكن لتتوقف حيث استمرت مع بداية الفورة الطائفية وحتى نهاية مهمتى بالعراق وهرعت إلى مقر عملى وإقامتى طلبا للسلامة.

بدأنا منذ اليوم الثانى خطة العمل فى المجال الإعلامى بحديث مطول لصحيفة المدى أسعد السفير كثيرا واتفقنا على المزيد إلا أننى اكتشفت بعد فترة ليست طويلة أن التلميع الإعلامى لسعادته هو الأمر الوحيد المتاح له ولنا حيث يمكنه من خلاله شرح لقاءاته التى جاوزت المائة لقاء مع مسئولين وممثلين لكافة الطوائف والقوميات العراقية بما فيها المرجع الشيعى الأعلى بالعراق آية الله على السيستانى بالإضافة إلى تكرار لما سبق من تصريحات تؤكد على وحدة البلاد وخير العباد والتأكيد على أن الجامعة العربية تقف على مسافة واحدة من كافة مكونات الشعب العراقى وغير ذلك مما سئمنا كتابته وقراءته فى كافة وسائل الإعلام وهو ما جعلنى استشعر ما سوف ينتهى إليه ذلك التعاون الذى بدأ مشتعلا مع سعادة السفير وأن ما يمكن لسعادته عمله هو فقط عرض الأفكار وإجراء اللقاءات وإطلاق المزيد من التصريحات دون فعل حقيقى يمكن أن نبنى عليه وجودا حقيقيا للمنظمة العتيقة وهو ما جعلنى اشد كآبة وامتعاضا من المرحلة التى التقيت فيها رئيس بعثة الجامعة العربية نظرا لارتداد الحلم إلى كابوس جديد يؤكد الفشل العربى بالعراق .

ويبدو أن الرجل تأكد مثلى أنه لا دور حقيقياً له بالعراق واستعاض بلعب كرة القدم والجرى فى ملعب وزارة الخارجية عن إجراء اللقاءات الصحفية والإعلامية لقتل ما يفيض من وقت يقضى غالبه فى لقاءات بروتوكوليه وحفلات

شاى وأفراح لأبناء كبار المسئولين العراقيين فى قصورهم المحصنة فى وقت لا يجد فيه العراقيون أمنا ولا خدمات وفى الوقت الذى كانت تتلألأ قصورهم بالأضواء المبهرة كان العراقيون يقضون لياليهم وسط ظلام دامس إلا من هيأت له ظروف الرزق أن يشغل مولدا منزليا أو يشترك فى مولد كبير بينما يتغلب الباقون وهم الأغلبية على الظلام بإشعال «اللالات» وهى مثل لمبة الجاز المصرية التى توقف القرويون عن استعمالها منذ أكثر من عقدين .

ويبدو أن البديل الذى اختاره سعادة السفير قتلا للوقت كان وبالا عليه حيث أدى تعثره ذات مرة إلى إصابة قدمه إصابة اعتبرها بسيطة إلا أن عمر الرجل وعدم وجود رعاية طبية جيدة حتى فى أرقى مستشفيات بغداد كما أن عدم استماعه لنصيحتى المخلصة بالتوجه إلى مصر للعلاج بدلا من البقاء بالعراق كان سببا فى تفاقم الحالة التى تطورت إلى ورم شديد وقطع فى وتر القدم إلا أن كل هذا لم يمنع الرجل من ممارسة مهام منصبه الخطير الذى كنت أتابعه بعد أن توقفت عن الاتصال به حيث كان نشاطه البروتوكولى يردنا من خلال البيانات الصحفية من مكاتب المسئولين الذين يلتقى بهم .

كانت مناسبة الانتخابات المحلية فترة زاهية إعلاميا لسعادة السفير نظرا لمشاركة الجامعة العربية فى مراقبة تلك الانتخابات بوفد كبير رأسه السفير محمد الخمليشى مساعد الأمين للجامعة العربية عوضه عن توقف البرنامج الإعلامى الذى كنا قد اتفقنا على تنفيذه موازيا للبرنامج الأكثر أهمية وهو خدمة العراق ودعم الدور العربى ويبدو أن ولع السفير خلاف بالإعلام والظهور جعله ينسى إصابته الكبيرة فى قدمه والتى كانت سببا رئيسيا فى إنهاء مهمته القصيرة بالعراق والتى استمرت حوالى ستة اشهر كان ضجيجها الإعلامى الذى رافقها والذى تبعها أكثر وضوحا من وجود الجامعة العربية بالعراق الذى لم يشعر به أحد .

بعد عدة أشهر من إنهاء السفير خلاف لمهمته لأسباب صحية زرت الرجل فى منزله الفخم بحى الوزراء بالقطامية زيارة مجاملة للاطمئنان على صحته بعد أن علمت أنه يتلقى علاجا منظما بين القاهرة وجنيف وسألنى إذا ما كان اليأس قد تسرب إلى نفسى من إمكانية وجود دور عربى فاعل وسألته إذا ما كان اقتنع بطبيعة الدور الحقيقى لإيران فى تخريب العراق ودار حوار طويل بيننا حول من سيأتى بديلا عنه لرئاسة بعثة الجامعة العربية فى بغداد ولماذا تأخر اتخاذ القرار بشأن البديل وحاول الرجل تهدئة مخاوفى من عدم وجود جدية لدى الجامعة العربية

للعب دور فاعل بالعراق وأكد أنه عما قريب سيتم تفعيل دور البعثة لأن هناك رغبة حقيقية فى دعم التواجد العربى الذى يرى أنه مبشر بوجود عدة بعثات لدول عربية على رأسها سفير وخاصة بعد تسمية سعادة السفير شريف كمال شاهين سفيرا لمصر لدى العراق .

وعلى ذكر سعادة السفير شاهين أكد لى السفير خلاف أنه سوف يعرض عليه خبراته الكبيرة بالشأن العراقى للاستفادة !!! وأبلغنى أنه سوف يخبر السفير شاهين بأنه يمكنه التواصل معى فيما يخص الوضع العراقى خاصة خارج أسوار المنطقة الخضراء مما جعلنى أتفاءل لبعض الوقت رغم ما تملكنى من يأس بسبب غياب الدور العربى بشكل عام والمصرى بشكل خاص مما فتح الأبواب واسعة لتكريس النفوذ الأجنبى بشكل عام والإيرانى بشكل خاص فى البلد الذى دمره العنف المنظم.

• ناجى شلغم

بعد عدة أشهر تولى الوزير المفوض ناجى أحمد شلغم مهام القائم بأعمال بعثة الجامعة العربية فى بغداد إلى حين تسمية سفير جديد كرئيس للبعثة خلفا لهانى خلاف واتصل بى مساعد رئيس البعثة والمسئول المالى والإدارى المصري خالد سعودى وطلب منى أن أتحدث إلى المسئول الجديد مع مقدمة رائعة للرجل وهو ليبى الجنسية حيث كان خالد يعلم توجهاتى ورغبتى العارمة فى التواصل مع البعثة ربما وجدت ضالتى فى متحمس حقيقى يتعاون معى ونتبادل الأفكار الهادفة لدعم التواجد العربى بشكل فعلى وليس بروتوكولى أو إعلامى فارغ يزيد من الهوة ولا يردمها وكنت فى ذلك الوقت خارج العاصمة بغداد واتفقت مع السيد شلغم على زيارته عند عودتى إلى بغداد لمناقشة ما يمكن عمله من خلال بعثة الجامعة .

عندما زرته فى مقر بعثة الجامعة بدا لى السيد شلغم كصورة مشرقة لدبلوماسى عربى يريد أن يعمل بجدية وأن يترك بصمة واضحة للمكان الذى يمثله واستمر نقاشنا أكثر من ساعتين ثم استمر النقاش على الغداء وبعده واتفقنا على تقديم أفكار واضحة قابلة للتنفيذ، وأن يكون تحرك الرجل أكثر فاعلية مع الحفاظ على الواجب البروتوكولى وأبلغنى بزيارة قريبة لوفد رفيع المستوى برئاسة السفير أحمد ابن حلى مساعد الامين العام للجامعة العربية برفقة السفير على الجاروش مسئول ملف العراق وذلك بمناسبة اقتراب انعقاد القمة العربية فى طرابلس التى سيكون العراق بندا رئيسيا فيها .. إلا أن هذه

الزيارة واكبت مشكلة كبيرة يبدو أن الجامعة العربية أرادت لعب دور مؤثر فيها وهى قضية إبعاد عدد من المرشحين العراقيين من خوض الانتخابات بتهم تتعلق بالارتباط بحزب البعث ونظام صدام حسين وعلى رأسهم القيادى السنى الدكتور صالح المطلك .

ورغم ازدحام جدول الزيارة إلا أنه تم ترتيب لقاء طويل مع السفير بن حلى بهدف إجراء حوار صحفى بثته وكالة أنباء الشرق الأوسط إلا أن من رتب اللقاء كان يعلم أننى سوف أتحدث مع السفير بن حلى فى نفس القضية التى تشغلنى وهى تفعيل دور الجامعة العربية ودعم التواجد العربى بالعراق وبالفعل تم ما أردت بعد إجراء الحوار وتحدثت إلى الرجل بكل صراحة وأكدت له أن الوقت بات أكثر ملاءمة لتكثيف الدور العربى بعد أن جرت عملية الفرز من العراقيين أنفسهم الذين تأكدوا أنهم للعرب والعرب لهم وأن حقيقة الدور الإيرانى ظهرت جلية أمام الجميع إلا أن هناك عتاب شديد على العرب الذين تركوا العراق نهبا للغرباء على كافة المستويات .

والحقيقة أن الرجل استمع باهتمام شديد وأبدى سعادة بالغة بمثل هذا التوجه الذى يجب أن يدعم ويتم البناء عليه لتحقيق الهدف المنشود فى صالح العراق والعرب على حد سواء ووعد بالعمل على كافة المستويات لتحقيق ذلك وأن تتم نقل الصورة إلى سعادة الأمين العام للجامعة العربية مع استعدادى التام للعمل بكل ما لدى من وقت وعلاقات لإنجاح هذا الدور المنشود .

وبعد انتهاء لقائى مع السفير بن حلى كنت على موعد آخر مع السفير على الجاروش وهو الخبير بالشأن العراقى الساعى دائما إلى عمل إيجابى يدعم التواجد العربى بالعراق ولكن فى إطار مؤسسة الجامعة التى تخضع لإرادات أعضائها جميعا وهو ما يجعل ترجمة الأفكار الجيدة إلى نتائج على الأرض أمرا ليس سهلا .. دار بيننا حوار استمر أكثر من ساعة حضر جزءا منه السيد شلغم وتقدمت ببعض المقترحات البسيطة ولكنها مؤثرة وسهلة التنفيذ من وجهة نظرى وذلك بعد أن شرحت له مشكلة معهد الدراسات العربية فرع العراق بناء على رغبة عدد من الزملاء العراقيين الذين يدرسون فى المعهد[1] .

(١) معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ومقره القاهرة ويرأسه الدكتور أحمد يوسف ومشكلته الرئيسية هي وجود ثلاث جهات بالعراق تمارس نشاطه العملي وتدعي حصولها على تفويض بإنشاء فرع له في بغداد ونحصل على رسوم تقدر بآلاف الدولارات من الطلبة العراقيين الذين يعملون بالدراسة في المعهد بمصر .

وطلب منى السفير الجاروش الذى لم يخفَ سعادته وبدا أكثر حماسا منى أن أكتب تلك المقترحات وأبعث بها إلى بريده الإلكترونى الخاص أو من خلال بعثة الجامعة فى بغداد مع وعد مؤكد بدراستها جديا وتنفيذ المتاح منها ومازلت أحتفظ بتلك المقترحات التى كانت كالتالى :

١- فى مجال الإعلام والتعليم

كسب الإعلاميين العاملين في مختلف الصحف العراقية ،خاصة ممن يحمل توجهات قومية من خلال إقامة دورات صحفيه لهم برعاية الجامعة العربية.

دعوة الصحفيين العراقيين ،المستقلين لحضور المؤتمرات التي تعقد من قبل الجامعة العربية من اجل توثيق العلاقات بينهم وبين الصحفيين والإعلاميين العرب.

توفير مراجع علمية للجامعات والمعاهد العراقية بالتنسيق مع مختلف الجهات العلمية في الدول العربية المختلفة من خلال رعاية مكتبة ضخمة تحمل إسم الجامعة العربية .

إقامة ورش عمل وندوات علمية بمختلف الاختصاصات بمشاركة خبراء عرب تستقدمهم الجامعة العربية وبالتنسيق مع المنظمات والجهات المختصة.

دعم قيام مركز للدراسات والأبحاث التي تخص العراق .

دعم إجراءات فتح فرع لمعهد البحوث والدراسات العربية التابع للجامعة العربية في بغداد بالتنسيق مع المعهد الموجود في القاهرة،وجعله تحت رعاية الجامعة العربية ،ورفده بالإمكانات العلمية مع الاستفادة من الباحثين والطلبة الدارسين فيه في مجال البحوث والدراسات الخاصة بالعراق.

٢- فى مجال الشباب والمرأة

دعم إقامة الدورات والندوات بإشراف الجامعة العربية سواء فى دولة المقر أو العراق أو باقى الدول العربية التى ترغب فى استضافة مثل هذه الفاعليات .

دعم المرأة العراقية خاصة قطاعات الأرامل والأيتام بالمشروعات الصغيرة فى إطار المبادرة الكويتية لدعم الأعمال الصغيرة والمتوسطة في نطاق دول الجامعة العربية الصادرة عن مقررات القمة العربية الاقتصادية والتنموية والاجتماعية والتي عقدت في دولة الكويت يومي ١٩ و ٢٠ من يناير من العام ٢٠٠٩ .

تنظيم مهرجانات للشباب من الجنسين بالتعاون مع الدول العربية تحت خيمة الجامعة العربية لتدعيم قيم السلام والتواصل الاجتماعى والثقافى بين الشباب العرب .

رعاية عدد من مراكز الشباب وتطوير امكانياتها والأنشطة التى تقدمها .

دعم منظمات العمل المدنى خاصة المهتمة بالأرامل والأيتام .

وحفاظا على العلاقة مع السيد شلغم ورغبة منى فى دعم عمله الذى بدا لى أنه جاد فيه من خلال لقاءات ودية معه فضلت أن أتقدم بتلك المقترحات من خلال بعثة الجامعة فى بغداد ومن خلال مكالماتى الهاتفية مع السيد شلغم والتى كانت البديل عن اللقاءات المباشرة نظرا لتدهور الوضع الامنى من جديد كان الأمر يزداد نضوجا ووضوحا مع التأكيد على أن الجامعة العربية تقف على مسافة واحدة من كافة مكونات الشعب العراقى وأنها جادة فى دعم العمل العربى والتواجد العربى بالعراق وربط العراق بمحيطه العربى وهو الأمر الذى يدعو إلى عدم الاكتفاء بالتواجد الشكلى للعرب بكافة مؤسساتهم مع دعم المبادرات الخاصة لبعض الشركات والمقاولين الهادفين للربح رغم أن نصيب الشركات العربية والمستثمرين العرب لا يمكن أن نحدد له نسبة فى مواجهة الشركات والمستثمرين الأتراك والإيرانيين بالطبع .

ربما يكون اختيار الدبلوماسى المخلص ناجى شلغم فى حد ذاته بالإضافة إلى الدور الهش لمؤسسة الجامعة العربية نسبيًا من أسباب عدم دفع الدور العربى عمليا وترجمة كل الأفكار المطروحة من جانبى والتى حظيت باهتمام من التقيتهم من مسئولى الجامعة العربية وخاصة السفير على الجاروش والسفير محمد الخمليشى وذلك لسببين رئيسيين لا يرتبطان بشخص الدبلوماسى الليبى النشيط الساعى إلى العمل بإخلاص مدفوعا بالكثير من النوايا الحسنة والرغبة فى النجاح أولهما أن الرجل رغم عمله كقائم بأعمال بعثة جامعة الدول العربية بالعراق إلا أنه ليبى الجنسية وهو ما يعنى أنه ينتمى لدولة ترفض الاعتراف بالوضع الجديد بالعراق وتقاطع العملية السياسية برمتها كما أنها متهمة بشكل واضح بالمسئولية عن اختفاء السيد موسى الصدر وهو وإن كان لبنانيا إلا أنه ينتمى لعائلة الصدر العريقة التى يتمتع أحد فروعها المنتمى إليه زعيم التيار الصدرى مقتدى الصدر بمساحة لا بأس بها من خارطة النفوذ فى العراق الجديد وذلك رغم التأكيد الليبي بعدم المسئولية عن ذلك .

أما السبب الثانى فهو المؤسسة التى ينتمى إليها الدبلوماسى الليبى المخلص وهى الجامعة العربية التى لا تحظى باليات عمل واضحة ومحددة ولا تمتلك قرارا مستقلا لأنها بوتقة تجمع أطرافا متناقضة المواقف فى أمور شتى وعلى رأسها الموقف من النظام العراقى الذى نشأ على أنقاض نظام صدام حسين فى ظل

احتلال أمريكى مغلف برداء دولى وهو ما يجعل العمل الواقعى على الأرض خاصة على الصعيد السياسى أمراً لا يتعدى طرح المبادرات وإصدار البيانات المتوازنة للترحيب والشجب والاستنكار .. كما أن العمل على الصعيد الإنسانى والاجتماعى تحيطه الكثير من المخاطر فى ظل عدم توافر الرغبة الحقيقية لدى أطراف نافذة بالعراق لتواجد عربى فاعل ناهيك عن قوى عراقية وغير عراقية لا تريد أصلا أى تواجد عربى .

عندما زار السفير محمد الخمليشى مساعد الأمين العام للجامعة العربية لشئون الإعلام والاتصال بغداد فى الخامس من مارس عام ٢٠١٠ ليرأس وفد المراقبين للانتخابات النيابية العراقية أعدت طرح الأفكار السابقة عليه خاصة قضية دعم الإعلاميين العراقيين الحقيقيين وتنظيم حلقات نقاشية وندوات ودورات تدريبية وغير ذلك من وسائل الدعم ومحاولة تنشيط دور الجامعة العربية فى المجال الثقافى .. رحب الرجل بذلك ترحيبا شديدا وطلب منى التنسيق مع السيد ناجى شلغم ووعد بتقديم كافة أوجه الدعم وترجمة الأفكار عمليا .

خلال الفترة التى تلت زيارة الخمليشى لبغداد لم تنقطع اللقاءات مع أعضاء بعثة الجامعة العربية بالعراق .. كنت أراقب عن قرب مدى نشاط الدبلوماسى الليبى الطيب ناجى شلغم ومحاولاته المستميتة لعقد صداقات مع كافة القوى السياسية العراقية والتعامل مع أطياف الشعب التى تشبه الفسيفساء .. أراد شلغم أن يكون وجوده محسوسا وملحوظا رغم المخاطر وأراد أن يؤكد وحدة العراق على طريقته فكان يصلى بمسجد الخلانى الشيعى وسط العاصمة بغداد أحد فروض الصلاة ثم يذهب ليصلى الفرض الذى يليه فى الحضرة القادرية « مسجد عبد القادر الجيلانى » أحد أهم مساجد السنة .. كان يصلى ويتجول في منطقة الأعظمية التى ينتسب اسمها إلى الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان وهى سنية خالصة .. ثم يذهب إلى المنطقة المقابلة لها ذات المكانة القدسية لدى الشيعة وهى الكاظمية التى ينتسب اسمها إلى الأمام موسى الكاظم « الإمام السابع لدى الشيعة الجعفرية».

حاول شلغم أن يتحاور مع كل الأطراف الفاعلة على الساحة وأن يمد جسور العلاقات بين الجامعة العربية وكافة الرموز المؤثرة فحرص على لقاء المرجع الشيعى الأعلى بالعراق فى النجف الأشرف التى تبعد ١٦١ كم إلى الجنوب من العاصمة بغداد آية الله على السيستانى فى الوقت الذى كان يرتب للقاء مع السفير الأمريكى داخل حصون السفارة بالمنطقة الخضراء التى تقع بعثة الجامعة خارج جدرانها شديدة التحصين .

ومن الواجب ذكره هنا أن بعثة الجامعة العربية لم تألُ جهدا فى القيام بمهمتها خاصة بعد تولى ناجى شلغم المسئولية إلا أن الأمر فى العراق لا يأتى بالنوايا الحسنة فقط وأعتقد أن الإمكانيات المتاحة لدى بعثة الجامعة قلصت الكثير من الفرص للعب دور مؤثر داخل العراق رغم الجهود الكبيرة لفريق السيد شلغم ومحاولات مساعد الأمين العام للجامعة العربية لشئون الإعلام والاتصال السفير محمد الخمليشى دعم دور الجامعة خاصة على الصعيدين الإعلامى والاجتماعى وكذلك السفير على الجاروش الذى كنت أحرص كل مرة أزور فيها القاهرة على لقائه وتبادل الآراء معه وهى اللقاءات التى كرست عندى قناعة بأن هناك من يريد أن يعمل بجدية فى العراق خاصة مع تأكيدات السفير الجاروش خلال الاتصالات معه التى لم تنقطع على الرغبة القوية للأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى فى بذل المزيد من الجهود على الأرض .. لكن يبدو أن هناك الكثير من الأمور التى تعوق تلك الأمنيات يجب وضعها فى الحسبان .

وعندما كنت أواصل إستعداداتى لمغادرة العراق بعد انتهاء مهمتى التى تجاوزت الأربع سنوات كانت مؤشرات الأمل فى دور أكبر للجامعة العربية بالعراق قد بدأت تتصاعد خاصة عندما وجدت بعض الأفكار التى شاركنى فى أهميتها مسئولو الجامعة العربية طريقها نحو التنفيذ على الأرض ثقافيا وإجتماعيا وإن كانت ظروف إنهاء مهمتى بالعراق لم تسمح لى برؤيتها شاخصة إلا أننى قررت الاستمرار فى متابعة الأمر مع مسئولى الجامعة العربية سواء بعثتها لدى بغداد أو السفير على الجاروش رئيس الدائرة العربية بالجامعة والسفير محمد الخمليشى مساعد الأمين العام لشئون الإعلام والاتصال بالجامعة .

٢ - السفارة المصرية

مع كل أزمة كنت أمر بها منذ دخولى إلى المذبحة العراقية كنت أتساءل إلى من ألجأ كمواطن مصرى فى بلد غريب ومن يمكن أن يقف إلى جانبى فى هذه الأزمة أو تلك ومن يمكن أن يتفاوض مع خاطفى على الفدية أو يتسلم جثتى إذا غدر بى الغادرون مع عدم وجود سفارة مصرية واقتصار الأمر على قائم بالأعمال لا حول له ولا قوة منذ اختطاف السفير إيهاب الشريف رحمه الله فى العام ٢٠٠٥ وإذا كانت مصر لم تعرف حتى الآن مصير جثته بعد اشاعة خبر قتله على يد تنظيم القاعدة هل يمكن أن تتبع أثرى إذا ما تم اختطافى أو ذبحى فى إحدى نقاط التفتيش الوهمية التى كان عددها أكثر من نقاط التفتيش الحقيقية في

تلك المرحلة، ولهذا كان وقع خبر تسمية سفير لمصر بالعراق مع وعود جازمة بإعادة فتح السفارة فى بغداد يفوق اثره بالنسبة لى أثره على أى شخص آخر .. حيث كان يعنى لى الأمان فى بلد ليس فيه أمن والاطمئنان فى بلد لا ينعم فيه الناس بأى درجة من الاطمئنان كما أن وجود سفير مصرى يعنى لى ما لا يمكن التعبير عنه من مشاعر بالفرح والأمل فى اقتراب تحقيق ما أحلم به دائما وهو التواجد الحقيقى لمصر العروبة لتلعب دورها الغائب سياسيا واقتصاديا وثقافيا وسط تساؤلات حائرة من الإخوة الباحثين عن الشقيقة الكبرى فى محنتهم التى يتنازع الدور الأكبر فيها من لا يريد خيرا لهذا البلد المنكوب .

قبل أن يتسلم سعادة السفير شريف كمال شاهين مهام منصبه فى بغداد كنت قد اكتشفت بالصدفة المحضة أن مصر قد عينت قنصلا هو هشام صبرى حجازى بعد انتهاء مهمة القائم بالأعمال الأخير حيث كان من يتولى هذا المنصب لا يستمر بالعراق لأكثر من ثلاثة أشهر ربما لدواع أمنية .

ويبدو أن تعيين القنصل كان توطئة لقدوم السفير شاهين والحق أقول : إن لقائى بالوزير المفوض حجازى كان تدشينا لمرحلة من الأمل والطمأنينة اتساقا مع خبر تسمية السفير حيث كان الرجل شديد النشاط والحيوية الممزوجة بمودة خالصة لكل مصرى ورغبة صادقة لخدمة أبناء البلد المنكوبين بالتواجد داخل المذبحة العراقية .. كان الرجل المخلص يعمل أكثر من ١٥ ساعة يوميا فى محاولة لإيجاد حلول لازمات المصريين التى لا تنتهى بالعراق بدءا من عدم وجود جواز سفر أصلا يثبت هويتهم مرورا بظروف غاية فى الصعوبة عايشوها كأنهم عراقيون تتنوع بين القتل والتهجير بلا سبب سوى أنهم مصريون مرورا بالاعتقالات العشوائية وفقدان كل شيء وهو ما جاء ذكره تفصيلا فى جزء سابق من الكتاب تم تخصيصه عن المصريين بالعراق أو ربما سوف أعد كتابا خاصا حول الحالة المصرية بالعراق تعرض قصصا ونماذج من أرض الواقع .

لم يخف الرجل سعادته البالغة بلقائى وما يمكن أن يكون بيننا من علاقة عمل وصداقة وتعاون يمكن أن يضيف له ولى فى ظل أوضاع مضطربة وظروف شديدة التوتر كان يزداد كلما اقترب الاستحقاق الانتخابى إلا أن كل ذلك لم يؤثر على الرغبة الصادقة فى إنجاح الدور المصرى لأن السيد حجازى كان أشد منى رغبة وحماسا فى تفعيل هذا الدور عمليا لأنه كان يؤمن أن مصر أكبر كثيرا من أن تلعب دورا هامشيا لا يعدو أن يكون بمثابة ردود أفعال لا تخرج حدودها عن صنحات الجرائد وشاشات الفضائيات وذلك على الرغم من حساسية موقفه

كدبلوماسى مصرى يقع ضمن دائرة التهديد التى سبق وأن راح ضحيتها السفير إيهاب الشريف الذى كان هشام صبرى يجلس على نفس مكتبه بعد أن تحول مبنى السفارة القديم بشارع الأميرات بحى المنصور إلى مقر للقنصلية .

عندما أبلغنى السيد حجازى باقتراب موعد قدوم السفير شاهين مع تعليمات واضحة بعدم تسريب أى خبر إلا بعد وصول الرجل وتأمين إقامته داخل المنطقة الخضراء أردت أن أرفع الحرج عن السيد حجازى واتصلت هاتفيا بالسفير شاهين فى القاهرة وعلمت بموعد وصوله بالتحديد وأكدنا اتفاقا سابقا بأن يبلغنى بوصوله على أرقام هاتفى التى أعطيتها له خلال اتصال جرى قبل موعد وصوله بحوالى ١٠ أيام وتمنيت له التوفيق وحسن الإقامة وأنا يحدونى الأمل الذى جعلنى أقفز فى الهواء فرحا وكأننى سوف ألتقى عزيزا غاب عنى طويلا حتى أن زوجتى شعرت فى نبرة صوتى بسعادة غير عادية عندما تواصلنا كالعادة لكنها قدرت شعورى بالسعادة البالغة باعتبارها شريكا رئيسيا فى أحلامى .

كانت الصدمة الأولى التى حاولت امتصاصها هى مرور ثلاثة أيام بعد وصول السفير شاهين إلى بغداد دون الاتصال بى حتى أذهب إلى لقائه إلا أن السيد هشام حجازى الذى طمأننى وهدأ من روعى عندما أبلغته بحالة الضيق التى انتابتنى لعدم تواصلى مع العزيز الذى انتظرته أكثر من ثلاث سنوات وطلب منى أن أبادر أنا بالذهاب إلى فندق الرشيد للقاء السفير لأنه غارق فى ترتيب إقامته مع فريق العمل المحدود الذى يرافقه خاصة وأنه لم يؤمن بعد وسيلة اتصال يمكن أن أتحدث معه من خلالها للاستئذان فى لقائه والترحيب به .

اتفقت مع زميلى مراسل الأهرام ورتبت لقاء معه على حدود المنطقة الخضراء عند تقاطع وزارة الخارجية حتى نذهب سويا للقاء سعادة السفير داخل فندق الرشيد الذى يتطلب إجراءات بالغة التعقيد والقسوة أولها أن تحمل نوعين من الأوراق الرسمية بينهما جواز السفر كما يجب أن تمر عبر سلسلة طويلة من نقاط التفتيش العراقية والأمريكية حاملا كل ما لديك من نقود وأوراق وهواتف بعد نزع بطارياتها ثم المرور عبر جهاز الأشعة الذى يكشف العظام وبعد انتهاء تلك السلسلة من الإجراءات / التى وردت تفصيلا فى جزء سابق من الكتاب/ .. وعندما وصلنا إلى بهو فندق الرشيد حيث فاجأنا مشهد السفير وهو يجلس محاطا بفريق عمله الذى لا يتجاوز الخمسة أشخاص غارقا فى الأوراق وأجهزة الكومبيوتر المحمول / لاب توب / وبعد اجتياز الحراسة الخاصة بسعادته قدمنا أنفسنا ورحب بنا الرجل ترحيبا حارا وانفرد بنا فى جلسة ودية استمرت حوالى

ساعة انضم خلالها إلينا شاب يبدو أنه كان يحظى بثقة السفير وهو سكرتير ثانى فى السفارة التى تتخذ من بعض غرف الفندق المحصن مقرا لها على أمل الانتقال إلى المقر الضخم الذى يقع داخل المنطقة الخضراء أيضا وهو أمر أكد لى أن ممارسة السفير والسفارة لمهامه فى خدمة المصريين أمر شبه مستحيل لأن الدخول إلى المنطقة الخضراء غير متاح لأى شخص وهو ما جعل مؤشر الأمل عندى ينخفض درجة وتذكرت مع الفارق طبعا محفوظ عجب فى رائعة نجيب محفوظ (القاهرة ٣٠) عندما تلقى عرض الزواج من سعاد حسنى عبر سكرتير الباشا وكان كلما اقترب من حقيقة الوضع يقول « آه نزلنا درجة » حتى بلغت الحقيقة ذروتها فقال قولته المشهورة « نزلنا أسفل السافلين » وهو ما عدت أعمل له حساب أن ينخفض مؤشر الأمل إلى الصفر عندما أكتشف حقيقة دور السفارة والسفير رويدا رويدا .

دار حوار طويل حول الأوضاع فى البلد ورؤيتنا للموقف وطرحنا عليه ما نراه من مشكلات يعانى منها المصريون المقيمون بالعراق بالإضافة إلى ما يطلبه العراقيون من الشقيقة الكبرى وكيف اعتبروا وجود سفير مصرى لديهم بادرة أمل على تسهيل الكثير من الأمور الصعبة وأهمها منح تأشيرات الدخول إلى مصر خاصة للحالات التى يجب عدم التنصل منها لدوافع يقال أنها أمنية مثل التعليم والعلاج والاستثمار وغير ذلك من الأهداف والفئات التى يعتبر دخولها إلى مصر إضافة للبلد ووجودها رصيد مستمر يسهم فى دعم الدور المصرى المطلوب فى العراق خاصة وأن هناك الكثير من الشركات الخاصة التى توفر تلك التأشيرات بمبالغ تصل إلى ٢٠٠٠ دولار بل تتعداها أحيانا ويتم ذلك بشكل غير رسمى من خلال طرق يشوبها الفساد والتحايل فى حين أن منح التأشيرة من خلال السفارة أو القنصلية المصرية مع وضع ضوابط محددة وفئات محددة هو الطريق الأمثل والبداية الحقيقية للإعلان عن وجود حقيقي لسفارة مصرية بالعراق .

إلا أن مؤشر الأمل هبط درجة أخرى عندما اكتشفت أن إعادة فتح السفارة المصرية لن يتم قبل عام تقريبا لظروف وملابسات يستعصى كثير منها على الفهم كما أن الدبلوماسى المصرى الذى يعتمد عليه السفير بشكل واضح يسأل فى بديهيات الشأن العراقى لدرجة أنه أفصح لى عن رغبة فى معرفة أسماء الفضائيات والصحف العراقية والى من تؤول ملكيتها لأكتشف أنه يستقى أخبار العراق من مواقع محدودة على الانترنت وبعض الفضائيات المتاحة للجميع دون معرفة توجهات تلك المواقع أو الصحف اللهم إلا الفضائية والصحيفة اللتين

تتبعان الدولة وهما قناة العراقية وصحيفة الصباح وهو ما جعلنى أشعر بأن هناك مسئولية تقع على عاتقى لإيضاح بعض الأمور إذا طلب منى ذلك وهو ما حدث بالفعل .

فى الحقيقة كان اللقاء فى مجمله وديا وشعرنا خلاله أن سعادة السفير بمثابة أب لنا واعتقدت أننى عثرت على الأهل فى بلد الغربة حيث كان كلامه يسرى إلى القلب سريعا بعد أن استمع لنا باهتمام حيث قال: « السفارة بيتكم ولا تترددوا أبدا فى اللجوء إلينا فى أى حالة نحن هنا لكم وإن شاء الله سنعمل كشخص واحد كل فى مجاله ولا تعتبرونى إلا أخا أكبر لكم وباقى أعضاء السفارة إخوانكم » .. المهم أن اللقاء انتهى على وعد بالتواصل الدائم الذى جعل مؤشر الأمل يستمر رغم انخفاضه درجتين .

فى اللقاء الثانى مع سعادة السفير والذى تم بناء على طلبى بسبب مشكلة تسبب فيها تصريح أملاه على السفير شخصيا عبر الهاتف حول سلامة المصريين من سلسلة تفجيرات كانت قد ضربت العاصمة بغداد وهى تفجيرات الأربعاء الدامى حيث كنت قد اقترحت على سعادته أن أبث الخبر عبر وكالة أنباء الشرق الأوسط صباح اليوم التالى لأن فرصة نشره بالجرائد تكون محدودة إذا بثته الوكالة بعد السابعة مساء باعتبار أن هذا التصريح خصنى به سعادة السفير ويجب أن يأخذ مكانه اللائق فى النشر بالصحف والجرائد المصرية والعربية التى تعتمد فى جزء من أخبارها على ما تبثه الوكالة ووافقنى سعادة السفير .. وعندما أرسلت الخبر إلى الوكالة فى صباح اليوم التالى فاجأنى زميلى الفاضل مشرف الدورة الصباحية باتصال به بعض العتاب وهو أن هذا الخبر نصا تم نشره فى كافة الصحف المصرية نقلا عن السفير المصرى فى بغداد من خلال بيان وزعه المكتب الصحفى بوزارة الخارجية المصرية على كافة الصحف فى نفس الوقت الذى كان يتحدث معى سعادة السفير ويؤكد أنه خص وكالة أنباء الشرق الأوسط ممثلة فى شخصى بالتصريح الهام مما جعلنى فى موقف حرج مع الوكالة لكن زميلى الذى عتب على تفهم الموقف عندما شرحت له الملابسات وعندها قررت أن ألتقى بسعادة السفير لأوضح طبيعة نشر الأخبار بالوكالة وأنه يجب أن أحافظ على مصداقيتى عندما أقول أن التصريح خاص بوكالتنا وأنه لا يجب أبدا أن أكتب « فى تصريح خاص لمراسل وكالة أنباء الشرق الأوسط فى بغداد» فى الوقت الذى تم توزيع التصريح على كافة وسائل الإعلام .

وبالرغم مما تسبب فيه الموقف من حرج لى إلا أننى التمست العذر لسعادة

السفير باعتبار أن مثل هذه الأمور فنيه وأن الرجل ربما أراد أن يبلغنى بالخبر بنفسه حتى لا أفاجأ بنشره فى الصحف دون علم منى بصفتى مدير مكتب المؤسسة الصحفية المصرية الوحيدة التى لها مكتب دائم بالعراق وحرصا منى على تعاون مثالى مع سعادة السفير طلبت اللقاء لتوضيح الأمور وحتى تكون العلاقة على خير ما يرام باعتبارنا فريق عمل واحد كل فى مجاله خاصة أن مثل هذه الأمور البسيطة ليست هى محور العلاقة وان كانت ضرورة ملحة لتنسيق التعاون لأن هدفى بل وحلمى الذى أنتظره من مثل هذا التعاون المبنى على علاقة وطيدة تتمتع بخصوصية هو أن أكون أحد المؤثرين فى تفعيل الدور المنوط بسفارة مصر فى العراق ودعم فريق العمل بالسفارة بكل ما يجب من معلومات واقتراحات وشواهد وعلاقات حتى يتمكن سعادة السفير من أداء دوره كأب للمصريين بالعراق أولا وما أدراك ما يعانيه أبناء مصر فى هذا البلد المضطرب وكجسر لاعادة بناء العلاقة مع العراق وإصلاح ما أفسدته سنوات القطيعة وغياب الدور المصرى والعربى ثانيا .

استقبلنى الرجل فى بهو فندق الرشيد وهو المقر المؤقت للبعثة المصرية والذى فقد كلمة مؤقت لفترة طويلة[1] ودار بيننا حوار طويل لأكثر من ساعتين بعد شرح الحرج الذى تعرضت له بسبب الخبر الذى أملاه سعادة السفير كتصريح خاص لى وهو أمر لم يستمر لأكثر من ١٠ دقائق إلا أن الحوار الهام هو الذى استمر طوال مدة اللقاء وتناولنا خلاله ما يعانيه المصريون من حالة تشبه الضياع خاصة بعد انهيار نظام صدام حسين ودخولهم دائرة الاشتباه بلا مبرر منطقى وسيادة النظرة الخاطئة إلى كل مصرى على أنه إرهابى وهو موقف تعرضت له شخصيا من جانب مسئول أمنى عراقى كبير كنت قد عاتبته فى أحد المؤتمرات بسبب عدم تمكنى من الحصول على إقامة رسمية بالعراق وهو ما يعرضنى لمضايقات ليس أقلها احتجازى من قبل إحدى نقاط التفتيش ولولا تدخل بعض الأصدقاء الذى أنقذنى من براثن رجال الأمن كنت قد تحولت إلى معتقل من آلاف المعتقلين الذين لم يرو النور لسنوات طويلة بدون أى اتهامات محددة ومنهم الكثير من المصريين ناهيك عمن تعرضوا للتصفية الجسدية بعد نزع كل أوراق تثبت شخصيتهم وتحولوا إلى جثث مجهولة الهوية ضمن فوضى القتل العبثى التى أصابت العراق بالجنون عامى ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ .

---

(١) انتقلت السفارة المصرية إلى مقر آخر مؤقت داخل المنطقة الخضراء أيضًا في مبنى مقابل للسفارة البريطانية بسبب قيام السلطات العراقية بتجهيز فندق الرشيد وعدة فنادق أخرى بالعاصمة بغداد أملاً في انعقاد القمة العربية هناك ٢٠١١.

ولعل من الإنصاف القول بأن تلك الصورة المأساوية للمصريين خفت حدتها بعد فرار الآلاف منهم عائدين بلا أمل إلى بلدهم بعد أن اقترضوا ثمن تذكرة السفر بالإضافة إلى الهدوء النسبى للأوضاع الأمنية إلا أن الخطر يظل قائما بل ويطال لهيبه بين فينة وأخرى بعض المصريين الذين يسوقهم الحظ العاثر إلى قدر محتوم سواء من القتل أو الاعتقال خاصة وأن أعدادا كبيرة منهم لا يحملون جواز سفر أو آية أوراق تثبت مصريتهم بعد أن فقدوها خلال عمليات الهروب من منطقة إلى أخرى بحثا عن أمن مفقود أو خلال مداهمات عشوائية أعقبتها عمليات اعتقالات جرى خلالها إتلاف الممتلكات أو نهبها .

نقلت إلى سعادة السفير الصورة بلا أية رتوش مع سرد نماذج عديدة التقيتها شخصيا أو روى لى قصصها أشخاص أثق فى رواياتهم سواء داخل العاصمة بغداد أو فى محافظات العراق المختلفة .. كما نقلت لسعادته ما تقوم به القنصلية من جهود جبارة فى هذا الصدد من خلال الوزير المفوض هشام حجازى إلا أن هذا الجهد لا يكفى بل يحتاج الأمر إلى عمل منظم وإلى فرق عمل خاصة وأن جهود القنصلية لا تتعدى تقديم خدماتها لمن يتمكن من الوصول إلى مقرها فى منطقة المنصور غربى بغداد وهو طريق محفوف بالمخاطر خاصة على بسطاء المصريين اللذين يقيمون خارج العاصمة موزعين على مناطق تفاوتت فيها معاملة سكانها لهم .. فبقدر ما لاقوه من معاملة قاسية وملاحقة وتصفية فى بعض المناطق بقدر ما أحيطوا بالمودة والعناية فى مناطق أخرى وكونوا عائلات بضمان كونهم مصريين دون وجود أية أوراق رسمية تثبت هويتهم اللهم إلا أخلاقهم الطيبة وشهادة بعض من رق قلبه لهم إلا أن المشكلة تبقى قائمة فمعظم هؤلاء يريد أن يكمل هيئته الاجتماعية ويمتلك ما يثبت مصريته كما أن عددا كبيرا منهم لم يؤدى خدمته العسكرية وهو حائر ماذا يفعل وكيف يمكن أن يسوى تلك المشكلة دون أن يمتلك جواز سفر أو هوية ناهيك عن مشكلة الحصول على إقامة شرعية التى يتفنن موظفوا مديريات الإقامة سواء فى بغداد أو المحافظات فى عرقلتها حتى إذا كان هذا المصرى يمتلك كافة الأوراق المطلوبة بما فيه عقد زواج مصدق من عراقية وهو أمر كفيل بحصول أى شخص على إقامة رسمية بالعراق خاصة إذا كان إيرانى الجنسية أما كونه مصرياً فهذا عائق لا يتجاوزه كثيرون وهو ما يتطلب تدخلا حازما من السفارة المصرية .

شرحت لسعادته المشكلة الغريبة التى تثير الكثير من الاقاويل والشكوك لدى العراقيين بشكل عام والمثقفين الملتزمين بشكل خاص وهى مشكلة تأشيرات الدخول

إلى مصر التى يمكن لأى شخص يمتلك ١٦٠٠ دولار فما فوق أن يحصل عليها بسهولة من خلال شركات سياحة تعمل فى قلب بغداد وفى عدد من المحافظات فى الوقت الذى يفشل فيه أساتذة جامعات وصحفيون ومفكرون ورجال أعمال فى الحصول على تأشيرة الدخول إلى مصر بالطريق الشرعى من خلال القنصلية أو السفارة حتى أن مواقف محرجة تعرض لها كثيرون عندما منحهم القنصل النشيط تأشيرة دخول على مسئوليته الخاصة نظرا لقيمتهم فى الهيكل الاجتماعى أو العلمى العراقى ثم فوجئوا بمن يمنع دخولهم ويعيدهم على نفس الطائرة التى أقلتهم بعد التعرض لإهانات بالغة ومعاملة قاسية بدعوى عدم الحصول على موافقة أمنية مسبقة .

والحقيقة أن سعادة السفير كان متفهما جدا ما أقول ووعد بتذليل كافة العقبات وحل مشكلة منح التأشيرات بشكل يحفظ للخارجية المصرية سمعتها بعيدا عن أحاديث التورط من جانب البعض فى الحصول على عمولات باهظة من شركات السياحة العراقية لتسهيل دخول عملائها إلى مصر خارج النطاق الرسمى الذى يجب أن يكون من خلال القنصلية أو السفارة حيث أنه يتم منح التأشيرة بالمجان ولا يدرى أحد أين تذهب آلاف الدولارات التى يدفعها عملاء شركات السياحة التى تنتشر إعلاناتها فى شوارع بغداد نظير الدخول إلى مصر وإذا كانت هناك إمكانية لدخول العراقيين إلى مصر لماذا لا يدخلوا بالطريق الرسمى والشرعى حتى وان استفادت السفارة بمبلغ تفرضه مقابل منح تأشيرة الدخول الأصولية .

إلا أن مشاكل المصريين التى وعد السفير بفعل ما يستطيع لحلها بدت لى من نبرته أنها أكبر من قدرات السفارة بوضعها الحالى وربما اللاحق عكس ما بدا لى من نبرة صوته عندما كان يتحدث عن مشكلة تأشيرة الدخول إلا أن نبرة الصوت التى تنم عن تمكن القادر ونبرة المحاول كلاهما ذهب إلى مصب واحد وهو مجرد التوقف عند حدود الكلام دون فعل ما يذكر وهو ما تأكد لى خلال ما تلا ذلك اللقاء من وقائع وهو ما جعل مؤشر الأمل ينخفض عندى درجة أخرى تفوق الدرجتين السابقتين وخشيت أن أنزل بعد ذلك إلى أسفل السافلين مثل محفوظ عجب .

بعد انتهاء اللقاء وافقت على دعوة كريمة من سعادة السفير لتناول الغداء لاستكمال المناقشات بناء على رغبته للإجابة على بعض التساؤلات بخصوص القوى السياسية والأوضاع العامة بالعراق خلال الفترة المقبلة والتى كانت موسما

للصراعات بسبب الانتخابات التشريعية التى كان قد تقرر إجراؤها فى السابع من مارس ٢٠١٠ حيث عرضت على سعادة السفير أن أقوم بترتيب بعض اللقاءات له مع عدد من ممثلى مختلف التيارات والقوى السياسية العراقية وأعضاء البرلمان ممن تربطنى بهم علاقات وثيقة ورحب الرجل بذلك وكانت سعادتى بالغة إلا أن الأيام مرت دون أى جديد على أى مستوى ودون التصدى لأى أمر من الأمور التى طرحتها وتجاوب معها سعادة السفير مما جعلنى أقترب من حافة اليأس لشعورى بأن الأمر يبدو أنه سيتحول إلى صورة مشابهة لتجربتى مع سعادة سفير الجامعة العربية إلا أننى أجلت هذا الشعور باليأس بعد أن طرحت مخاوفى على صديقى القنصل وهدأ من روعى وطلب منى الهدوء والصبر حتى يلتقط الرجل أنفاسه كما قال وان كانت نبرة صوته تؤكد مخاوفى من أن وجود سعادة السفير لن يعدو كونه أمرا بروتوكوليا سجلته بيانات مكاتب المسؤلين الذين كان يلتقيهم سعادته وأقوم أنا ببث أخبارها وما يتلوها من تصريحات مكررة عبر وكالة أنباء الشرق الأوسط وهو الأمر الذى استمر حتى جاء موعد زيارة رئيس الوزراء العراقى نورى المالكى إلى القاهرة والتى كانت مسألة هامة ومؤثرة بالنسبة للعلاقة بين مصر والإدارة العراقية فى عصر ما بعد صدام حسين كما كان ما جرى قبلها وبعدها مسألة فاصلة بالنسبة لى فى تأكيد مخاوفى ومن ثم علاقتى بسعادة السفير .

قبل أن يغادر رئيس الوزراء إلى القاهرة فى ١٩ أكتوبر عام ٢٠٠٩ تحدد لى موعد لإجراء حوار معه فأبلغت سعادة السفير وتناقشت معه عبر الهاتف حول ما يمكن أن أثيره من قضايا مع دولة رئيس الوزراء العراقى فطلب منى أن أذهب لمقابلته فى فندق الرشيد / مقره المؤقت الدائم/ وجرى معه لقاء استغرق حوالى الساعة تحدثنا خلاله عن مختلف الأمور والقضايا التى سبق وتحدثنا فيها وأنهى الرجل اللقاء بطلب تقبلته وهو إلا أثير أية قضايا عالقة قد تعكر صفو الأجواء قبل الزيارة خاصة مصير المعتقلين المصريين ومصير التحقيقات فى اختفاء السفير إيهاب الشريف وغير ذلك من الأمور الثقيلة على نفس المصريين والعراقيين على حد سواء / كل طرف بأسبابه/ .. سألت سعادة السفير إذا كان سيرافق رئيس الوزراء فى زيارته للقاهرة أم لا حتى أرتب أمرى فى السفر مع رئيس الوزراء أو البقاء إذا كان سعادة السفير لن يسافر إلى القاهرة فأكد لى الرجل أنه لن يسافر برفقة رئيس الوزراء وهو ما جعلنى أعتذر عن مرافقة رئيس الوزراء العراقى إلى القاهرة خاصة وأننى كنت عائدا للتو من أجازة عيد الفطر التى قضيتها مع

أسرتى بالقاهرة .

وخلال لقائى مع سعادة السفير اتصل بى أحد الأصدقاء من مكتب مستشار رئيس الوزراء للشئون الإعلامية ومدير المركز الوطنى للإعلام السيد على الموسوى وطلب منى استئذان السفير فى إجراء مقابلة للقناة الرسمية / قناة العراقية/ بمناسبة زيارة المالكى إلى مصر وأبلغت سعادة السفير بتلك الرغبة وطلبت تحديد موعد إلا أن الرد جاء صادما وهو أن سعادة السفير لا يستطيع إجراء أى مقابلة صحفية أو تليفزيونية بدون الحصول على إذن من وزارة الخارجية وهو ما جعل مؤشر الأمل عندى ينخفض عدة درجات وأشعر بالإحباط كما أن هذا الرد أكد مخاوفى من كون وجود السفير لا يتعدى التواجد البروتوكولى المقيد بمقره / المؤقت / بفندق الرشيد .

انصرفت تحيطنى مشاعر مختلطة من اليأس والإحباط والرغبة فى إنهاء مهمتى بالعراق فلا طائل من البقاء على حافة المذبحة وتحمل المخاطر والسير فى مواكب الموت المجانى.

وفى الوقت الذى كان يتطلب إجراء سعادة السفير لحوار مع قناة رسمية عراقية اذنا من وزارة الخارجية كانت أخبار نشاطات السفير الإيرانى المنشورة وغير المنشورة تبعث على الإحباط عند المقارنة بين السفيرين ليس أقلها قيام السفير بافتتاح مسجد فى محافظة ميسان جنوبى العراق وسط موكب إمبراطورى مهيب يليق بسفير الإمبراطورية الفارسية يرافقه المحافظ محمد شياع فى وقت كانت بلاده تحتل أحد الحقول النفطية الهامة وهو حقل الفكة رقم ٤ .. فيما كنت قد قرأت خبرا طريفا فى صحيفة حريات التركية يشير بما لا يدع مجالا للشك كيف يعمل المسؤولون لصالح بلادهم دون النظر إلى الصورة النمطية المسبقة لنظام الحكم أوصفته .. فتركيا التى يحكمها حزب العدالة والتنمية ذى التوجهات الإسلامية أسهمت نشاطات سفارتها فى العراق وقنصلياتها التى تغطى ثلاثة مناطق فى شمال العراق وجنوبه إلى تصدير بيرة تركية للعراق خلال عام ٢٠٠٩ بقيمة ٢٢ مليون و١٠٠ ألف دولار ضمن معدلات تبادل تجارى تمكنت تركيا خلالها إلى تحقيق ٧ مليارات دولارات وتعمل على زيادتها خلال العام ٢٠١٠ إلى ٢٠ مليار دولار فى وقت لا توجد لدينا أية أرقام عن حجم التجارة المصرية العراقية وحتى أن وجدت فهى بالتأكيد أرقام هزيلة لا ترقى إلى ما حققته تركيا أو إيران الذى تجاوز ميزانها التجارى مع العراق ثمانية مليارات معلنة ومثلها تجارة خفية عبر طرق غير رسمية .

تغلبت على تلك المشاعر المحبطة عندما أبلغنى القنصل هشام حجازى أنه

سيرافق رئيس الوزراء بناء على طلب منه شخصيا وهو ما أحيا الأمل بوجود من هو مثلى يعمل ويعمل ويتمتع بميزة كونه أحد عناصر الإدارة الرسمية المصرية فيما يخص العراق وله سلطه حقيقية ليست مثل سلطة الصحافة التى تتوقف نتائجها وتأثيرها عند رغبة المسئول فى الإنجاز وتحقيق ما يمليه الموقف من ضرورة .

كان ما حدث بعد ذلك مسألة فاصلة فى علاقتى بسعادة السفير حيث تأكدت أن مسار تلك العلاقة لن يكون كما تمنيت ولن يحقق وجوده ما توقعت حيث فوجئت بسفر الرجل قبل سفر رئيس الوزراء العراقى إلى مصر ليكون فى استقباله هناك دون أن يبلغنى أو يفسر لى سبب إخفاء الأمر عنى ومن ثم اثنائى عن السفر مع المالكى ضمن الوفد الصحفى المرافق له إلى القاهرة إلا أن هذا الموقف جعلنى أستعيد ذكرى واقعة غريبة كان بطلها إلى جانب سعادة السفير شخص يدعى /...../ ضمن أعضاء البعثة طلب منه السفير أن يعطينى عنوان بريده الإلكترونى لاستخدامه إذا أردت أن أتحدث مع سعادة السفير أو أبلغه بأمر هام وتعذر ذلك عن طريق الهاتف المحمول نظرا لسوء الخدمة وضعف شبكة الاتصالات بالعراق بشكل عام إلا أننى فوجئت بأن هذا البريد الإلكترونى غير صحيح وعادت لى الرسالة التى أرسلتها / فيلر نوتيس/ وعندما أبلغت السفير بذلك لم يحرك ساكنا وعندها تأكدت أن الأمر برمته غير مريح وأنه لا طائل من التواصل مع سعادته وتحمل تكاليف الاتصالات والانتقال إلى مقره بالمنطقة الخضراء وما يرافق الدخول إلى تلك المنطقة المحصنة من إجراءات تبعث على الضيق والقرف خاصة المرور على جهاز الأشعة الذى يكشف ما تحت الجلد وهى إجراءات لا يمر بها سعادة السفير أو أيًا من أركان بعثته لأنهم لا يغادرون المنطقة المحصنة إلا من خلال مواكب رسمية لإجراء مقابلات رسمية تاركين المصريين التعساء ممن هم خارج أسوار المنطقة الخضراء فى العراء لا يملكون حتى ترف الإهانة بكشف ما تحت ملابسهم الداخلية لأنهم لا يجرؤن على مجرد الاقتراب من الحصون المنيعة التى يقيم خلفها من ارتضوا أن يكونوا من الواقفين على حافة المذبحة مجرد متفرجين بلا أى أثر بينما يقف غيرهم داخل المذبحة يؤثر فيها ولا يتأثر مواطنوه بها إنما يستفيدون من وجود ممثليهم داخل المذبحة بينما هم يصولون ويجولون محققين المكاسب على كافة المستويات لا يجرؤ كائنا من كان على الاقتراب منهم أو إغفال حقوقهم أو التجاوز عليهم فى الوقت الذى تبقى أبواب بلادهم مفتوحة على مصراعيها لاستقبال العراقيين سائحين ومستثمرين

يسبقهم قادتهم من شتى الطوائف والمكونات فالمصالح مثل السياسة لا تعترف بالسكون وتغليب المشاعر والعواطف إنما تعترف فقط بالمكاسب وتعمل لها بكل جدية وإخلاص وفق رؤية واضحة ترعى المصالح وتحقق الأهداف المنشودة وهذا هو سبب النجاح الباهر لدول مثل إيران وتركيا على سبيل المثال لا الحصر حيث تقع سفاراتهم بعيدا عن التقوقع داخل حصون المنطقة الخضراء المنيعة بدعوى الاستهداف الذى كان يجب أن يكون عنصرا محركا للعمل الجاد والأخذ بالأسباب للتأثير فى الواقع العراقى بالتواجد الفاعل داخل المذبحة بلا هشاشة منبعها الخوف أو ربما الاستجابة لضغوط أطراف لا تريد تواجدا حقيقيا لمصر وهو ما صبغ الدور المصرى والعربى منذ دخول القوات الأمريكية إلى العراق فى أبريل عام ٢٠٠٣ واستمر حتى طبع هذا الكتاب وربما سوف يستمر طويلا طالما تجرى الأمور وفق أهواء من لا يريد لنا تواجدا بالعراق بينما نكتفى نحن بالوقوف متفرجين على حافة المذبحة .

وقد جعلنى وضع السفارة والسفير أتساءل دائما إذا كان سعادة السفير لا يملك مجرد صلاحية منح تأشيرة دخول لأى عراقى إلى مصر بما فى ذلك أساتذة الجامعات ورجال الأعمال والإعلاميين وطلبة العلم والمحتاجين للعلاج وغير ذلك من الفئات التى يجب الترحيب بها فى أى وقت فما جدوى وجود بعثة مصرية داخل حصون المنطقة الخضراء لا يستطيع أى مصرى التواصل معها أو مجرد الوصول إلى أبواب الحصون التى تحتمى بها .

وإذا كانت أوضاع السفارة المصرية بالعراق أصابتنى باليأس من دور فاعل وحقيقى بسبب عدم وجود تواصل حقيقى بين البعثة المصرية ومواطنيها بالعراق على كافة المستويات .. فباستثناء شخص مثلى اختار الابتعاد وعدم التواصل غير المجدى مع عناصر البعثة الذين يتواجدون داخل حصون المنطقة الخضراء فقد شكا إليّ كثير من المصريين المقيمين بالعراق من أسلوب تعاطى عناصر البعثة معهم واكتفائهم بنمط جاف من العلاقة وإطار محدد لا يتجاوز من يعمل بالبعثة كدبلوماسى أو موظف أو حارس أمن .

قبل مغادرتى العراق بأيام كنت قد لبيت دعوة على إفطار رمضانى من أحد الأصدقاء العراقيين المقيمين بالمنطقة الخضراء وهو برلمانى سابق شديد الحب لمصر ويتمنى مثل غيره من العراقيين أن يزداد الدور المصرى فى بلاده وأن يكون هناك تواصل حقيقى بين عناصر السفارة المصرية لدى بغداد مع أشقائهم العراقيين وأن تتاح للجميع زيارة مصر للتجارة أو السياحة أو غير ذلك من الأمور الهامة .. مررت على المبنى الصغير الذى انتقلت إليه البعثة المصرية بشكل مؤقت

بعد إغلاق فندق الرشيد لغرض ترميمه استعدادا لاستقبال القمة العربية القادمة رغم ما يعانيه العراق والعراقيون من أزمات وانهيار أمنى وخدمى شامل وهو مبنى مواجه للسفارة البريطانية شديدة التحصين وذلك بعد الخضوع لإجراءات أمنية معقدة رغم أننى أحمل الكثير من الهويات « الكارنيهات» ويصطحبنى أحد سكان المنطقة الخضراء بسيارته الخاصة .. تساءلت مرة أخرى كيف يمكن لمواطن مصرى بسيط الوصول إلى تلك الحصون ليلتقى بمن داخلها الذين هم مرجعيته الأولى فى بلد مثل العراق وإلى متى يستمر دور البعثة المصرية بروتوكوليا ومتى تنتقل السفارة إلى مقرها الدائم داخل المنطقة الخضراء أيضا وتمارس دورا حقيقيا ؟؟ !!

٣ - السفارة اللبنانية

رغم انتمائه للمذهب الشيعى إلا أن القائم بالأعمال اللبنانى هزاع شريف لا يعترف بما يسمى الطائفية التى جعلها بعيدة عن مجال عمله الدبلوماسى ولهذا لا يذكر أبدا أنه سئل ذات مرة عن طائفته أو مذهبه .

خلف جدران عالية لا يعترف بها يمارس القائم بالأعمال اللبنانى ما يسميه الدبلوماسية الشعبية ، يواصل عمله المضنى نهارا فى خدمة المراجعين من العراقيين المسافرين إلى بيروت واللبنانيين المقيمين بالعراق بينما ينهى يومه فى زرع الزهور والعناية بحديقة مبنى السفارة التى تسلمها قفرا مجدبة تليق بصورة بغداد خلال تلك الفترة شديدة القسوة من زمن المذبحة وتحديدا فى يناير عام ٢٠٠٦ .

روى لى هزاع شريف أنه تسلم عمله فى مرحلة بالغة الصعوبة من تاريخ العراق ، شجعه على ذلك أن المهمة رغم قسوتها فإنها فريدة ولن تتكرر سواء فى وقائعها أو ملابساتها أو شخوصها وظروفها ، تجربة كرسها احتلال العراق من أكبر دولة بالعالم تستوجب رؤية الأحداث ومعايشتها على الأرض رغم أنه كان يتوقع ما جرى بعد زيارة استكشافية قبل أن يتسلم مهامه الرسمية بعام تقريبا وذلك فى فبراير عام ٢٠٠٥ .

يقول هزاع : « إن التواجد داخل العراق فى تلك الفترة يتيح للدبلوماسى أو المراقب السياسى الاقتراب من البوصلة التى يتحرك العالم على ضوئها ومن ثم يمكن تحديد توجهات القوة العظمى نحو المنطقة بالكامل وليس العراق فقط ، حيث أثبتت الأيام صحة توقعاته لما جرى لأن ذلك كان جزءا من مخطط لإثارة الفتنة المذهبية ليس بين العراقيين فقط وإنما بالمنطقة إلا أن ذلك لم يتم مثلما أراد مخططوه .

عندما زرت مقر السفارة اللبنانية للمرة الأولى عام ٢٠٠٨ حيث تقع بالقرب من

مدينة الطب تحتضن نهر دجلة مقابل جسر الصرافية أدركت مدى خطورة المكان التى لا تكمن فقط فى وقوعه خارج حصون المنطقة الخضراء وإنما لاقترابه من مناطق تماس لنفوذ الميليشيات الشيعية التى كانت تمارس جرائمها فى مدينة الطب القريبة حيث يقع الطب العدلى « مشرحة بغداد» التى ورد ذكرها فى جزء سابق من الكتاب وكذلك قربها من كورنيش يؤدى إلى منطقة الأعظمية السنية حيث يمتد نفوذ تنظيم القاعدة .. إلا أن هزاع بادرنى بالقول « عندما تقبل الخدمة بالعراق فأنه يجب أن تحسب حسابا للمخاطر لأن الخدمة هنا سواء كانت سياسية أو إعلامية مسئولية لا يقدر على تحمل شرفها إلا المخلصون لأوطانهم وبلدانهم » .

فسر لى هزاع كيف تمكن من العمل خارج حصون المنطقة الخضراء معتمدا على قوة حماية بسيطة رغم خطورة المرحلة التى حضر فيها إلى العراق ، حيث أكد أن الموقف المتوازن الذى سار عليه لبنان جعل الاستهداف غير وارد إلا قليلا حيث تعرضت السفارة لاستهداف منظم إبان معركة نهر البارد بين الجيش اللبنانى وجماعة فتح الإسلام فى شتاء عام ٢٠٠٨ حيث كان يوجد تقاطع بين جماعة شاكر العبسى وتنظيم القاعدة .

تقع السفارة اللبنانية فى موقع فريد تحتضن نهر دجلة حيث كانت مقرا لسكن السفير اللبنانى قبل قطع العلاقات الدبلوماسية بين بيروت وبغداد بسبب اغتيال الشيخ طالب السهيل المعارض لنظام صدام حسين فى أوائل التسعينات من القرن الماضى وتوجيه الاتهام لعناصر من السفارة العراقية لدى لبنان بالتورط فى عملية الاغتيال ، إلا أن منزل السفير بات مقرا للسفارة عندما عادت العلاقات بين البلدين بعد سنوات من القطيعة .

فى إحدى زياراتي للسفارة اللبنانية التى جعل منها هزاع شريف ملتقى للأصدقاء من كافة الجنسيات حيث يعقد جلسة فى يوم الجمعة من كل أسبوع تضم عراقيين ولبنانيين ومصريين وغير ذلك من الأصدقاء يرتادها رجال أعمال ومسؤولون وقادة أمنيون ، روى لى القائم بالأعمال اللبنانى أحد المواقف الصعبة التى تعرض لها والتى كاد أن يفقد حياته بسببها وهى سقوط كتلة حديدية فوق المبنى وتحديدا فى الطابق الثانى الذى يتخذه مسكنا ، كانت هذه الكتلة التى تزن حوالى ٢٠٠ كجم جزءا من جسر الصرافية الحديدى الذى جرى تفجيره عام ٢٠٠٧ ضمن موجة العنف التى استهدفت معالم العراق وكرست مبدأ الفصل بين شطرى العاصمة بغداد تحديدا الكرخ السنى والرصافة الشيعية / الجزءان الغربى والشرقى من العاصمة التى

يقسمها نهر دجلة وتمتد فوقه الجسور رابطة بين البغداديين .

يقول هزاع : إنه فى ذلك اليوم من ربيع ٢٠٠٧ كان طريح الفراش بالمستشفى لينقذه القدر من موت محقق بعد أن هدمت القذيفة الحديدية الطائرة الطابق الثانى من مبنى السفارة .

تحدى الرجل ما مر به من أيام قاحلة ورعب وأحداث دموية ليدشن حديقة رائعة فى باحة السفارة الخارجية ، حيث يلاحق الجمال والدقة كل من زوار السفارة بعد أن صارت حديقتها لوحة جمالية رسمها فنان مبدع لم يستجب للضغوط النفسية التى تفرضها لغة الرصاص وتكرسها رائحة الدم والبارود .

فى آخر زيارة للقائم بالأعمال كان قد جهز كميات من الرصاصات الطائشة التى أصابت المبنى أيام العنف الطائفى سواء بقصد أو غير قصد كما طلبت منه حيث يحتفظ بصندوق كامل به طلقات لكافة الأسلحة ومختلف العيارات ، إلا أن هزاع شريف الذى يتنقل بشكل دائم ضيفا أو مضيفا بين مختلف مناطق بغداد ، بينما لا يتوقف جرس هاتفه عن الرنين طلبا للمشورة من مستثمرين ورجال أعمال عراقيين ولبنانيين يديرون مشروعات مشتركة فى مجالات الإعمار والتجارة والاتصالات ، بينما تفتح لبنان جامعاتها ومستشفياتها ومناطقها السياحية للعراقيين بدون تأشيرة دخول كملاذ آمن لهم يسمح بفتح كافة الميادين لزيادة التعاون على جميع المستويات بين العراق ولبنان وهو ما جعل اللبنانيين يحظون بالكثير من الفرص الاستثمارية فى العراق بفضل الدبلوماسية الشعبية التى يجيد هزاع شريف فنّ ممارستها دون حساب مقيد بسبب الظروف الأمنية التى يعانى منها العراق ولبنان معا .

٤ - سفارة الإمارات

مساء الثلاثاء الموافق ١٦-٥-٢٠٠٦ أعلن مصدر بوزارة الداخلية العراقية أن مسلحين مجهولين اختطفوا ناجى النعيمى وهو دبلوماسي يمثل دولة الإمارات العربية المتحدة في بغداد خلال زيارة كان يقوم بها للملحقية الثقافية الإماراتية في حي المنصور الراقي (غرب بغداد) وقاموا بإطلاق النار على احد حراسه الشخصيين وهو سوداني الجنسية مما أسفر عن إصابته بجروح بليغة لفظ أنفاسه الأخيرة على أثرها وأصدرت جماعة عراقية تطلق على نفسها اسم «لواء الإسلام» بعد ذلك بيومين شريط فيديو طالبت فيه دولة الإمارات العربية المتحدة بإغلاق سفارتها في العراق.

وبعد الإفراج عن الدبلوماسى الإماراتى المختطف مقابل فدية مالية كبيرة

بحوالى عامين أعلنت الدولة الاتحادية التى أسسها الراحل الكبير الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان عام ١٩٧١ من سبع إمارات إعادة فتح قلبها وسفارتها في بغداد وتسمية اللواء السابق بالجيش عبد الله إبراهيم الزوي الشحي سفيرا لها بالعراق إيذانا باستمرار الجهود الإنسانية وتفعيل المشاركة الاقتصادية وضخ مليارات الدولارات للاستثمار فى إعادة إعمار البلد الذى دمرته الحروب الخارجية والداخلية .

ولم يكن غريبا على المتابع للشأن العراقى أن يرى تلك الخطوة التى تبعتها خطوات أشد تأثيرا وأكثر دعما للعراقيين حيث كانت الإمارات أول دولة عربية حاولت إطفاء فتيل الحرب العراقية الإيرانية ومنذ بداياتها، وذلك من خلال مبادرة الشيخ زايد رحمه الله بتحمل جميع خسائر الطرفين من قبل دولته مقابل إنهاء تلك الحرب، وأردفها بمبادرة أخرى باقتراحه على رأس النظام السابق ترك العراق قبيل غزوه، واستعداد الإمارات لتضييفه، بالإضافة إلى مبادرات إيجابية أخرى تبعت انهيار نظام صدام حسين تهدف إلى خدمة الشعب العراقى دون النظر إلى طائفة دينية أو قومية .

ولعل الاختيار الموفق للسفير عبد الله الشحى كان له أبلغ الأثر فى دعم التواجد الإماراتى القوى اقتصاديا وإنسانيا فى العراق حيث أن الرجل تخرج من مدرسة الراحل الكبير الشيخ زايد الذي ترك الكثير من حكمته ومبادراته الإنسانية ليعمل فى ظلها السفير الإماراتى لدى العراق رغم الظروف التي يعيشها البلد في هذه المرحلة حيث سعى إلى أن يرتقي بالعلاقات الثنائية الاقتصادية بين الإمارات والعراق لتتماشى وتتناغم مع مستوى العلاقات السياسية، من خلال انفتاح عراقي وثقة باقتصاد الإمارات وشركاتها، مع المشاركة في إعمار العراق من منطلق حاجة العراق إلى المساندة والدعم في هذه المرحلة الحرجة من تاريخه التي تحتاج إلى مسابقة الزمن وتحقيق الاستقرار والرفاهية للمواطن العراقي،

ويقول الشحى : إنه سعى دائما إلى أن تكون للشركات الإماراتية الأسبقية في الاستثمار في العراق من خلال زيارة الوفود الاقتصادية وترجمة ذلك عمليا على الأرض من خلال مشروعات عملاقة فى مختلف القطاعات وكافة المناطق العراقية .. حيث قامت وزيرة التجارة الخارجية معالي الشيخة لبنى القاسمي بزيارة إلى إقليم كردستان في ١٨-١٩ يونيو ٢٠١٠ على رأس وفد ضم مجموعة متنوعة ومختارة من رؤساء ومدراء ٤٥ من الشركات الإماراتية من جميع القطاعات الاقتصادية والتجارية والاستثمارية وغيرها، وهو ما يؤكد حرص الإمارات المستمر على توسيع قاعدة التعاون الثنائي في جميع المجالات التي تشكل اهتماماً مشتركاً

بين البلدين

ويروى الشحى كيف أن العلاقات التجارية بين الإمارات والعراق حملت عام ٢٠٠٩ أنباءً سارة ومفرحة، إذ أنه في الوقت الذي تراجعت فيه حركة التجارة الدولية بشكل ملحوظ بسبب ظروف تباطؤ الاقتصاد العالمي، ازداد حجم التبادل التجاري غير النفطي بين البلدين بنسبة ٦٣٪ ليرتفع من ثلاثة مليارات و(٧٩) مليون دولار في عام ٢٠٠٨ إلى خمسة مليارات و(١٩) مليون دولار في عام ٢٠٠٩ ليصبح العراق الشريك التجاري الحادي عشر عالمياً للإمارات والشريك التجاري الثاني عربياً.

وفي الوقت الذي ارتفع فيه حجم صادرات الإمارات إلى السوق العراقية خلال عام ٢٠٠٩ بنسبة ٥٤١ مقارنة بالعام ٢٠٠٨ ليصل إلى أربعة مليارات و(٢٤١) مليون دولار، كذلك وصلت صادرات العراق إلى سوق الإمارات إلى (٧٧٨) مليون دولار ، وهذه المؤشرات الإيجابية جداً في حركة التجارة بين البلدين تعد إحدى ثمرات الجهود المشتركة من أجل الارتقاء بمستوى العلاقات التجارية وتوسيع مجالات التعاون الاقتصادي .

ويقول سفير دولة الإمارات العربية المتحدة أن وقوف بلاده مع العراق في هذا الظرف هو ليس «منة» بل هو واجب لا تهتم القيادة الإماراتية بإبرازه إعلاميا ، وعلى سبيل المثال : إن الجرحى العراقيين الذين يأتون إلى الإمارات يتم منع الصحافة على اختلاف انتماءاتها أجنبية أو عربية من تصوير استقبالهم أو نشر الخبر عن علاجهم فى مستشفيات دبى أو غيرها ،وما قدمته دولة الإمارات للعراق هو بسيط جداً ونراه واجباً حتمياً علينا أن نؤديه لعضو من أعضاء جسمنا، وأكرر وأقول : إنه واجب وليس «منة» خاصة وأن الجالية العراقية الموجودة في الإمارات يقدر عددها بحدود (٢٠٠) ألف عراقي .

ولعل قراءة سريعة لتصريحات المسئولين من الإمارات أو العراق يمكن أن يلقى المزيد من الضوء عن الدور الهام حاضرا ومستقبلا لهذه الدولة الصغيرة التى لا يزيد عدد سكانها عن ٥,٦ مليون نسمة ومساحتها ٨٢,٨٨٠ كيلو متر مربع، حيث قالت وزيرة التجارة الخارجية الشيخة لبنى القاسمي على هامش زيارتها لإقليم كردستان العراق ، : «أن الإمارات تعد بوابة العراق نحو المستقبل»، كاشفة عن أن «الإمارات تقود الاستثمارات في إقليم كردستان العراق، نتيجة قدرة الشركات الإماراتية على استكشاف الفرص الاستثمارية بشكل مبكر، والتنافسية العالية التي تنتهجها في عملها، سواء في السوق المحلية أو الأسواق الخارجية».

وأضافت أن «أرقام التبادل التجاري بين الإمارات والعراق، تظهر أنها حققت ارتفاعاً ملحوظاً خلال السنوات الماضية، بلغت نسبته ٢٨٪ بين عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٨

وبزيادة طفيفة بلغت ١,٢٪ بين عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ لتصل إلى أكثر من ثلاثة مليارات دولار، ما يعكس الجهود التي تبذلها الجهات الحكومية، ومؤسسات القطاع الخاص، للارتقاء بمستوى العلاقات الاقتصادية، وتوسيع مجالات التعاون التجاري».

ولفتت إلى «زيادة الصادرات غير النفطية الإماراتية إلى السوق العراقية، بنسبة تجاوزت ٨٩٪، ووصلت إلى نحو ٣٥٨ مليون دولار، مقارنة بعام٢٠٠٧ فيما بقيت قيمة إعادة التصدير من الإمارات إلى العراق مرتفعة، رغم انخفاضها بنسبة ٥,٧٪، لتبلغ أكثر من ٢,٦ مليار دولار.

وأوضحت أنه «إذا كانت الاستثمارات الإماراتية في الخارج تتمتع ببعد عربي كبير، خصوصاً في السنوات الأخيرة، فإننا نؤكد أن العراق يشكل إحدى أهم المحطات العربية للاستثمارات الإماراتية خلال المرحلة المقبلة، بالتزامن مع خطط الإصلاحات وزيادة الانفتاح الاقتصادي».

وأشارت القاسمي إلى ما وصفته بـ«خصوصية الشركات الإماراتية»، التي تعتمد في أدائها على ثقافة الجودة العالمية، وفي تنفيذ المشروعات على المصداقية والالتزام الصارم بمواعيد التنفيذ والتسليم، مع المحافظة على أعلى مقاييس الاحتراف»، مؤكدة «حرص الشركات الإماراتية باستمرار على تطبيق استراتيجيات مهنية محددة، تجعلها تتميز بالابتكار، بما يتناسب مع احتياجات ومتطلبات الدول التي تستثمر فيها، ما يساعدها على الثبات والتنافس رغم وجود شركات عالمية عريقة».

كما تشير التقديرات إلى أن عدد الشركات الإماراتية الراغبة بطرح مشاريعها الاستثمارية في محافظة البصرة تزايدت في الآونة الأخيرة حيث أن محافظة البصرة استقبلت أكثر من أربع شركات إماراتية في غضون شهر، مما يدل على أن الشركات الإماراتية الراغبة بطرح مشاريعها الاستثمارية قد تزايدت.

وأوضح أن محافظ البصرة شلتاغ عبود استقبل وفداً من المكتب الاستشاري الإماراتي (ديوان) ضم بعضويته المدير العام للمكتب محمد الأعسم والمهندس الأقدم إحسان كبة وتباحث الجانبان تفعيل الاستثمار داخل المحافظة وسبل الارتقاء به وبكافة المجالات

وتم خلال الاجتماع الاتفاق على جوانب مهمة لدى بعض الشركات الإماراتية للاستثمار في مجال المجمعات السكنية والتجارية إلى جانب بعض الصناعات الخفيفة بقيمة تتجاوز الـ٥٠ مليون دولار.

وتدلل هذه الأرقام والتقارير بما لا يدع مجالاً للشك أن الإمارات بإنتاجية الأطراف الفاعلة ليس فقط على الصعيد الإنساني وإنما الاقتصادي أيضاً بالعراق .